كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

الرسول

صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته وأنوار من هديه

الدكتور عبد الحليم محمود

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٤٤ ـ رمضان ١٣٩٩ ـ أغسطس ١٩٧٩

No. 344 — August 1979

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تلفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ـ ١٢ عددا ـ في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادي ، وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصري بالبريد الجوي ، وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوي .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

الرسول

صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته
وأنوار من هديه

•

بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

•

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، والداعين بدعوته الى يوم الدين .

« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع اذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة الكتاب

(١)

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى كثير من سوره ، يقول سبحانه :

« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » (١) .

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا » (٢) .

ويقول سبحانه :

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٣) .

ومن أجل هذه الصلة الالهية برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أرشدنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ الى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٤) .

---

(١) الاحزاب : ٤٥ ، ٤٦
(٢) النساء : ٨٠
(٣) آل عمران : ٣١
(٤) الاحزاب : ٢١

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهى عما نهانا عنه ، وهددنا اذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب » (١) .

أما السر فى ذلك فهو :

١ ـ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه :

« والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى ، . أن هو الا وحى يوحى » (٢) .

٢ ـ كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى جميع احواله حركة وسكونا ، اشارة ونطقا ، قلبا وقالبا ، يمثل القرآن الكريم ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه تطبيقا للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهرا وباطنا، لقد كان قرآنا.

ولقد وصفته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصفا دقيقا حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » .

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له اذ يقول :

« وانك لعلى خلق عظيم » (٣) .

(٢)

والحق ، اننا حينما نريد أن نكون صورة واضحة تامة عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن الطريق

---

(١) الحشر : ٧ (٢) النجم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٣) القلم : ٤

الوحيد لذلك ، انما هو الاحاطة بالقرآن احاطة واضحة تامة ، والاحاطة بالقرآن على هـــذا النسق ليست من السهولة بمكان ، بل ليست بممكنة : فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للانسانية ، ويتفتح عن معـــان جديدة للشخص المتأمل المتدبر : وهذه المعانى الجديدة : ـ انسانية عامة ، أو فردية شخصية ـ انما هى ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والعكس أيضا صحيح ، فان المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة ، يفهم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديدا ، وهذا الفهم انما هو تفسير وايضاح لجوانب من القرآن الكريم .

لقد امتزج الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ـ كما قدمنا ـ روحا وقلبــا وجسما ، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقا وتشريعا : فكان ، صلوات الله وسلامه عليه : قرآنا يسير فى الناس ، وكان القرآن روحا ينتقل ، وكان قلبا ينبض ، وكان لسانا ينطق بالهداية والارشاد .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصا كل الحرص على ان يكون خلق الأمة الاسلامية القرآن ، لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الأمة فيقول سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليــه ما عنتم حريص عليــكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (۱) . صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

---

(۱) التوبة : ۱۲۸

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

« مثلي ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارا . فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو ينبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » .

هذه هى صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ، وهذه هى صلته بأمته .

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه الى السماء بل وتجاوزها الى سـدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، لقد ارتفع الى الأفق الأعلى وتجاوز بذلك النهايات الكونية ، لقـد كان فعـلا : أدنى من قلب قوسين فانغمس فى الأفق الأعلى وتلقى عن الله مبـاشرة كيفية الصلة به وهى الصلاة ، ثم ... ثم انبسط الى الأرض سراجا منيرا ، رءوفا رحيما ، هاديا ، يدعو الى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الى السماء ثم عاد الى الأرض ، أقسم بالله ، لو صعدت الى السماء لما حاولت العودة الى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نبى ورسول فهو متصل بالله دائما : انه فى السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة . انه كان على حد تعبـير القرآن : « بشرا رسـولا » فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله : انه مع الناس بارادة الله وتوجيهـه وأمره ، انه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، انه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : انه دائما مع الله

ويمكننا أن نقول : انه ـ منذ اللحظة الاولى للبعثة ـ لم ينزل الى الأرض قط ، وانما كان دائما مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه ؛ يقول صلى الله عليه وسلم :

« لست كهيئتكم : أبيت عند ربي ... » .

(٣)

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى » (١) .

انه صلوات الله وسلامه عليه : « بشر » وما يجول فى خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه « بشر يوحى اليه » .

وما يتأتى قط أن يوحى الله الى بشر الا اذا اصبح وكأنه قطعة من النور : صـــفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

فمنتهى القول فيه انه بشر وانه خـير خلق الله كلهم

(٤)

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه الآية الكريمة :

« قل انما انا بشر مثلـكم يوحى الى » (٢) .

يقف عنـد كلمـة : (بشر) فيحاول التركيز عليهـا وتوجيه الانتباه كله اليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ،ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعا لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى الى » بل انه فى اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى الى » ويهملها اهمالا .

(١ ، ٢) الكهف : ١١٠

انه ليس بنادر فى العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وعن خطئه ــ معاذ الله ــ فى الرأى ، وعن اصابته فيه ، ويسير هذا البعض فى حديثه أو فى كتابته مستنتجا ومستنبطا وحاكما ، وينسى فى كل ذلك :

« وما ينطق عن الهوى (١) ، وينسى فى كل ذلك :

« يوحى الى » ، وينسى : « لست كهيئتكم » ، وينسى :
« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لهــــا حلول مختلفة ، كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله ســـبحانه وتعالى قد بين للأمة الاسلامية أن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ــ وهو على صواب دائما ــ انما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة ، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الاســلامية العام :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٢) .

والله سبحانه ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك الى الرأفة الرحيمة ... أن الله سبحانه وتعالى ببياته ذلك ، انمــا يمدح الرسول صلوات الله وســلامه عليه ، ويبين أن منزع الرحمة انما هو الغالب عليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولم يلغ الله سبحانه اتجاها عاما سار فيه الرسول ،ولم ينقض قضية كلية أقرها ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله ، فما كان صلوات الله وسلامه

(١) النجم : ٣ (٢) الانبياء : ١٠٧

عليه يسير الا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

«وانك لتهدى الى صراط مستقيم،صراط الله . .»(١).

وما فعل الله فى كل ما تمسك به المنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون الا بيان رحمة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه ، ورأفته : أى انه سبحانه كان يبين فى هذه المواطن فضله صلوات الله وسلامه عليه وانه ــ كما وصفه سبحانه ــ : على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية ، وبين التحدث عن خطأ وصواب ،وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها .

ولنضرب لذلك مثلا : ان الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيرا عن قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟ » (٢) ويقذفون مباشرة بقولهم : ان العفو لا يكون الا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : ان الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنها قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟ .

عفا الله عنك ، لم تعنى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول :

رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الارهاق ؟ .

ان الآية القرآنية من هذا الوادى .

وضم هذه الآية الكريمة الى أختها التى فى سورة النور : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » (٣) تجد المعنى واضحا جليا ، وهو ان الله سبحانه ، فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ،

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ (٢) التوبة : ٤٣
(٣) النور : ٦٢

فى ان يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبى اذن معاتبا بهذه الآية ـ وحاشاه ـ بل كان صلى الله عليه وسلم مخيرا ، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا،ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه فى الاذن لهم ، انها آية مدح للرسول غاية فى الرقة ... ومن غير شك قد صدر الاذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هـذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك الا متبعا لقوله تعالى :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه المارون .

(٥)

ومع ذلك فاننا نريد أن نزيد الأمر وضوحا فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى الى » لاهميته الكبرى فنقص القصة التالية ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى شرحه لقصيدة ولى الله : (أبو مدين) رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد رضى الله عنه ـ وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟ .

فأشير الى شيخ كبير فى السن كان حاضرا هناك .

فقال له : هل سمعت شيئا من كلام أبى يزيد ؟ .

فقال : نعم سمعته قال : « من زارنى لا تحرقه النار » .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول

(١) الانبياء : ١٠٧

أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم وتحرقه النار ؟ .

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى صلى الله عليه وسلم ، انما رأى (يتيم أبى طالب) ، ولو رآه صلى الله عليه وسلم لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه ، أى انه لم يره بالتعظيم والاكرام والأسوة ،واعتقاد انه رسول الله ، ولو رآه بهـــــذا المعنى لم تحرقه النار ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبى طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد رضى الله عنه ، وانما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى صلى الله عليه وسلم وانما رأى (يتم أبى طالب) .

هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها .

والمؤمنون ـ بحمـــــد الله ـ لا يقعون فى هذا الاثم متعمدين ، وانما يتسلل هذا الاثم الى بعض النفوس فى صورة لا شعورية ، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول صلوات الله وســــلامه عليه ـ وكأنه لا شىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب أنهم حينما يتحـــــدثون عن البشرية ، ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين،وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل انما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول

الا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر ـ فى هذه النزعة ـ وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين انما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة ، او يتابع أبا جهل وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ،وانما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت ، يتزعمهم فيها أبو جهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !! .

ليس هناك اذن اجتهاد وخطأ وصواب ، وانما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبينا طبيعة رسوله الـــــكريمة ، وفطرته الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبين فى الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها وليسوا أهلا لها ، لفساد فطرهم وسوء نواياهم .

من الحقائق المعروفة أن الانسان يميل الى التركيز على: « بشر » أو على : « يوحى الى » حسب قوة شعوره الدينى وضعفه ، فالذى لا ايمان له لا يرى الا البشرية ، ومن ضعف ايمانه يركز على البشرية ، ويخفف التركيز على البشرية كلما قوى الايمان ، ويزداد التركيز على : « يوحى الى » كلما ازداد الايمان ، حتى يصل الانسان الى الا يرى أو لا يكاد يرى الا « يوحى الى » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

وهناك اذن طرفان يمثلان فريقين من الناس . طرف : « بشرا » أو ، « قل : انما أنا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى الى » أو « رسولا » ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المســــلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا .

وان مقياس الايمان قوة وضعفا ، مقيـــاس درجة

الايمان الذى لا يخطىء ، انما هو ما وقر فى القلب او غلب عليه ، من البشرية أو من : « يوحى الى » انهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان .

دع ما ادعته النصـــارى فى نبيهمو
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٦)

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى أو لا يكاد يرى ، الا : « يوحى الى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟ .

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن « يتيم أبى طالب » لتقربنا من « الأسوة » ؟ كيف ينبغى أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ .

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلزم لها أن يصل الانسان الى مستواه صلوات الله وســلامه عليــه أو الى ما يقرب من مستواه وذلك لا يتأتى .

بيد أنه اذا اســتحال ذلك فانه من الميسور أن نورد صورتين ، احداهما : جاهلية ، والأخرى اسلامية . والصورتان لسيدنا عمر رضى الله عنه .

أما الصورة الأولى : فانها « يتيم أبى طالب » كان سيدنا عمر ، يراها قبل أن يهديه الله للاسلام ، وأراد سيدنا عمر أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين اليك : بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر فهداه الله للاسلام ، ولازم الرسول صلوات الله وسلامه عليه فناله من بركاته ومن

خيره ماهيأه لأن يكون الخليفة الثانى للأمة الاسلامية أجمع وأن يعز الله الاسلام به فى حيـــاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وبعد وفاته .

أن سيدنا عمر هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذى كان اذا سلك طريقا سلك الشيطان طريقا آخر : خشية منه ورهبة ، والذى نزل القرآن أحيـانا مصدقا لما رآه ، ان سيدنا عمر صاحب : « يا سارية الجبل » يرسم لنا صورة اسلامية لسيده وحبيبه وصديقه ونبيه ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن هذه الصورة : هى صورة سيدنا عمر ، انهـا تتناسب مع مستوى سيدنا عمر وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على رضى الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟.

أن الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله وسلامه عليه :

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) .

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » الا تفسيرا لما أشارت اليه الآية القرآنية الـــكريمة ، أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الـــكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ، أستغفر الله واتوب اليه .

ولنعد الى الصورة التى حاول رســـمها صاحب : « ياسارية الجبل » ، لنعد اليها لنثبتها شارحين لبعض

---

(١) القلم : ٤

حوادثها ، موضحين لبعض أنبائها ، وسنجعل الايضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم ، سمع سيدنا عمر يبكى ويقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتها » . يروى البخـــارى ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبا وكتب السيرة « حادث حنين الجذع » بعدة روايات ، وننقل هنا احدى روايات البخارى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول اليه الجذع فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (١) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

« واذا أخـــذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم » (٢) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون :

(١) النساء : ٨٠ (٢) الاحزاب : ٧

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » (١) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان موسى ابن عمران أعطاه الله حجرا تنفجر منه الأنهار فماذا « فليس ذلك » بأعجب من أصابعه حين نبع منها الماء صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله .

ان نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه ، لم يحدث مرة واحدة وانما حدث عدة مرات ، رواه البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، في ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا احدى روايات الامام البخاري :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس » فأسرعوا وتكاثروا « نحوه فقال : « مالكم » ؟ .

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا من بين يديك . فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

قلت : « كم كنتم » ؟ .

قال : « لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » . بأبي أنت وأمي يا رسول ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك : « سنتحدث في فصل خاص عن الاسراء والمعراج » .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله : لئن كان عيسى بن مريم

(١) الاحزاب : ٦٦

أعطاه الله ، احيـاء الموتى ، فمـــاذا نأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع :

« لا تأكلنى فانى مسمومة » .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى ، عن محمد بن عمر ، عن أبى سلمة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت اليه يهودية شاة مصلبة ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهـا هو وأصحابه ، فقالت : انى مسمومة ، فقال لأصحابه : « ارفعوا أيديكم ، فانها قد أخبرت أنها مسمومة » قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل اليها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

« ما حملك على ما صنعت » فقالت : أردت أن أعلم ان كنت نبيا لم يضرك وان كنت ملكا أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت ا هـ .

بأبى انت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (١) » .

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وطىء ظهرك — تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ،حتى كادت عيناه تبرزان — وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول الا خيرا ، فقلت :

« اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » .

(لقـد دمى وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت

---

(١) نوح : ٢٦

رباعيته فى « غزوة أحد » . روى ذلك البخارى ومسلم :
أما حديث :

« اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة » .

بأبى انت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك فى قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الـــكثير وما آمن معه الا القليل .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس الا كفئا لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح الا كفئا لك ما نكحت الينا ، ولو لم تواكل الا كفئا لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا ، ونكحت الينا ، وواكلتنا ، وابسست الصوف ، وركبت الحمار ، واردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .

هذه صورة .

ومن الطريف أن نذكر صـــورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صـــلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيـال دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن ، هذا الرجل هو : « هرقل » .

اتاه كتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يدعوه الى الاسلام فلم يهمل الكتاب ولم يمزقه ، وانما قرأه فى عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل عمـــا اذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول فقيل له : ان بالمدينة تجارا من مكة يعرفون محمـــدا باعتبـاره من مواطنيهم فأمر

باحضارهم وكان منهم ابو سفيان .

وسأل هرقل عن أقربهم نسبا الى الرسول ، فكان أبا سفيان فقربه منه وأدناه وقال لهم : انى سائله عن أمور فان كذبنى فكذبوه :

يقول : أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من ان يأثروا على كذبا لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى : لأنها واضحة من النتائج التى انتهى اليها هرقل :

ان هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة : بدأ — عن طريق الترجمان — يقول لأبى سفيان على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سألتك عن نسبه :

فذكرت : أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسى يقول قبل قبله .

وسألته : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا .

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ؟ .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .

فذكرت : أن لا .

فقد اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم !

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : اتباع الرسل .

وسألتك : ايزيدون ام ينقصون ؟ .

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الايمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألته هل يغدر ؟ .

فذكرت : أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألته : بم يأمركم ؟ .

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق والعفاف .

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو انى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

هذه الصورة التى كونهـــا هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكونها أو يكون مثيلات لها كل انسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ، وكل انسان يصدق الله والحق : لابد أن ينتهى

بما انتهى اليه هرقل من قوله : « لو كنت عنده لغسلت عن قدميه » وانما يغسل عن قدميه ، من أجل : « يوحى الي » . اذ أن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد أن هذه النهاية التى انتهى اليها هرقل ، انما هى الشعار الدائم الذى لا ينتهى بانتقال الرسول الى الملأ الأعلى ، فالرسول حي بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه والغسل عن قدميه الآن أو بتعبير آخر احترامه : انما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرا يتناسب مع اصطفاه الله له صلى الله عليه وسلم .

ولقد ركز هرقل نوعا على الصدق والاخلاص ، والواقع ان صورة الصدق والاخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تعمه عصبية ، أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والاخلاص ، كانت سمة من السمات التى اتصف بها الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه ، لقد لازمته طيلة حياته ، لقد كان مجرد الخبر يلقيه صلوات الله وسلامه عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة . فهذا أمية ابن خلف ـ عدو لدود ـ يتلاحى مع سعد بن معاذ رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة المناقشة : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انه « قاتلك » ويضطرب قلب أمية بن خلف ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل هـ : أو قال ذلك حقا ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط فى يده وقال: لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بين حينما أعلن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلا وراء هذا الوادى تريد ان تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟ » .

لقد كانت اجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه لقد قالوا :

«نعم انت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط» .

وصورة أخرى ، صورة لم يترتب لها ترتيب مروى ولم يؤد اليهـا منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ورفقة قريبة ، وانما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

انها الصورة التى كونتها عنه صلوات الله وسلامه عليه أم معبد الخزاعية ، وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه وانما تتصل على الأخص بالجانب الظاهر ، وأردنا ان نثبتها هنا لنثبت بها « هيئة » وظاهرا بعد أن اثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والاجلال ، ان الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف ،انهاتعبيرعن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة الى المدينة يرافقه أبو بكر رضى الله عنه، وعامر بن فهيرة مولى ابى بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة قـوية الأخلاق عفيفة تقابل الرجال ، فتتحدث اليهم وتستضيفهم : وسألها الركب عن تمر أو لحم يشـتـرونه فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك ، فقـد كانت سنة من السنين العجاف ، فقال لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما اعوزكم القرى . فنظر رسول

الله صلى الله عليه وسلم الى شاة فى ركن الخيمة ، فقال :
« ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت :
هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .
فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟
فقالت : « هى اجهد من ذلك » .
قال : « أتأذنين أن أن أحلبها » ؟ .
قالت : نعم بأبى أنت وأمى ان رأيت بها حلبا .
فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال :
« اللهم بارك لها فى شأتها » .
فامتلأ ضرع الشاة ودر لبنها ، فدعا باناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم وقال : « ساقى القوم آخرهم » .
فشربوا جميعا مرة بعد مرة .
ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزا عجافا هزلى فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :
« من أين لـكم هذا ولا حلوبة فى البيت » ؟ .
قالت : لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت .
قال : والله انى لأراه صاحب قريش الذى يطلب ، صفيه لى يا أم معبد ؟ .
قالت : رأيت رجلا ظاهرا الوضاءة ، متبلج « مشرق » الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة « ضخامة البطن »

ولم تزر به صعلة « لم يشنه صغر الرأس » وسيم قسيم، فى عينيه دعج ،وفى أشفاره وطف «طويل شعر الأجفان»، وفى صوته صحل « رخيم الصوت » أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطح « ارتفاع وطول » وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكان منطقة خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر « لا داعى فيه ولا ثرثرة فى كلامه » أجهر الناس وأجملهم من بعيـــــد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعـــة « وسط ما بين الطول والقصر » لا تشنؤ « تبغضه » من طول ولا تقتحمه عين « تحتقره » من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا له رفقاء يحفون به ، اذا قال استمعوا لقوله ، واذا أمر تبادروا الى أمره ، محفود « يسرع أصحابه فى طاعته » ، محشود « يحتشد الناس حوله . لا عابث ولا منفذ «غير مخرف فى الكلام» .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ولأفعلن ان وجدت لذلك سبيلا .

هذه هى الصورة التى حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمر بن العاص فانه يقول فى صراحة وصدق ـ عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر المــاضى فخنقته العبرات ، وتحدث مع ابنه عن أشـــياء عدة فى صورة مؤثرة ـ : « ما كان احد أحب الى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه اجلالا ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

والآن نريد أن نتساءل : ما هى الصورة التى نريد أن نرسمها فى هذا الكتاب ؟ .

ونريد أن نقول : ان هذه الصورة التى نحاول رسمها ، ليست صورة مبتدعة لا مخترعة ، انها صورة نحـــاول جاهدين أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول : اننا لا نرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها ونحن هنا ، انما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ، معترفين بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هـــذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع وأن تكون على ما فيها من عجز وقصور ، ممثلة لبعض ما تكنه لسيد ولد آدم : من حب وايمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله يوم لا ينفع مالا ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذا الزوايا التى نحاول رسمها فانه لا يعزب قط عن بالنا قول امامنا البوصيرى رضى الله عنه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الأبيات ، التى تعبر عن الحقيقة تعبيرا صادقا :

أعيا الورى فهم معنـــاه فليس يرى
للقـــرب والبعـــد فيه غير منفحم

كالشمس تظهـــر للعينين من بعـد
صـــغيرة وتكل الطـــرف من أمم

وكيف يدرك فى الدنيـــا حقيقته
قوم نيام تسـلوا عنـه بالحـــلم

فمبـــلغ العـــلم فيه أنه بشر
وأنه خـــير خـــلق الله كلهـــم

النسب الشريف

لم تزل فى ضمائر الكون تختا
ر لك الأمهات والآباء

ابان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه الامام مسلم :

« ان الله ، اصطفى من ولد ابراهيم : اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل : بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة : قريشا ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وهو صلوات الله وسلامه عليه : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصى :

ويصل نسبة الى سيدنا ابراهيم عليه السلام :

ولا نريد هنا ، أن نتحدث عن النسب الشريف من ابراهيم عليه السلام ، الى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وانما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين من قصى :

قصي :

كان قصي عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة فى عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة ، ورأى قصى : أن قريشـــا : انما هى الوارث الشرعى لاسماعيل فهى فرعته (١) وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم الى اخراج خزاعة وبنى بكر من مكة وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصي فى تدبير الأمر واحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالا شديدا وكانت الغلبة فى النهاية لقصى .

ولما فرغ من نفى خزاعة وبنى بكر عن مكة ، تجمعت اليه قريش ـ حسبما يروى ابن سعد فى « طبقـــاته الكبرى » ـ فسميت يومئذ قريشا (٢) لحال تجمعها ، والتقرش هو التجمع .

ومما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

« كان قصى بن كلاب أول ولد كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها الى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم حتى أن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها الا فيها ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب لهم ، ولا فى قوم غيرهم الا فى دار

(١) سلالته .

(٢) قيل فى سبب التسمية بآراء غير ذلك .

الندوة : يعقده لهم قصى ، ولا يعذر (١) لهم غلام الا فى دار الندوة ، ولا تخرج عير (٢) من قريش فيرحلون الا منها ، ولا يقدمون الا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة بفضله ، ويتبعون أمره كالدين المتبع : لا يعمل بغيره فى حياته وبعد موته ، وكانت اليه الحجـــابة (٣) والسقاية (٤) والرفادة (٥) واللواء (٦) والندوة (٧) ، وحكم مكة كله وكان يعشر (٨) من دخل مكة سوى أهلها :

قال : وانما سميت : دار النـــدوة لأن قريشا كانوا ينتدون فيها : أى يجتمعون للخير والشر ، والندى . مجمع القوم : اذا اجتمعوا (٩) .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحى ، وضاقت مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشـــجر فى الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر فى الحرم ، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : انمـــا تقطعونه لمنازلكم ولخططكم : بهلة (١٠) الله على من أراد فسادا ، وقطع هو بيده وأعوانه فقطعت ــ حينئذ ــ قريش ، وسمته « مجمعا » لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها ــ دار الندوة والحجابة والسقاية واللواء والرفادة ــ الى أكبر ابنائه سنا ، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف .

---

(١) لا يختن
(٢) قافلة
(٣) سدانة البيت
(٤) سقيا الحجيج
(٥) اطعام الحجيج
(٦) للحرب
(٧) للمشورة
(٨) يأخذ منهم العشر
(٩) أنظر طبقات ابن سعد ص ٥٠
(١٠) أى لعنته

عبد مناف :

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى عليه :
« وانذر عشيرتك الأقربين » (١) .

فانه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع اليه بنو عبد مناف تلبية لندائه قال لهم :

« أن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وانى لا أملك لكم من الله حظا ، ولا من الآخرة نصيبا ، الا أن تقولوا :

« لا اله الا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر ، وست نسوة ، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف ، واسمه عمرو ، وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، من اجل أن تختلف الى الشام آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب . ايلاف قريش ، وايلاف قريش هو : دأبها وعادتها : ولقد كان هو أول سن سن الرحلتين لقريش ، ترحل احداهما فى الشتاء الى اليمين ، والى الحبشة : الى النجاشى فيكرمه ويهديه الهدايا ، ورحلة الصيف الى الشام والى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويهديه انهدايا (٢) .

(١) الشعراء ٢١٤ (٢) أنظر طبقات ابن سعد

ثم أصابت قريشا ، ســـنوات جدب عجاف ، ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم الى الشام ، فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله فى الفرائر على الابل حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز ، يعنى : كسرة ، ونردة ، ونحر تلك الابل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، وقدم الطعـــــام لأهل مكة فأشبعهم ، وكان ذلك أول الحياة بعد السنة التى أصابتهم فسمى بذلك : هاشما .

وكان هاشم : رجلا شريفا طموحا ذكيـــــا ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة — من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة — فحمل اللواء ضـــــد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للتنازل ، وعبئت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولى هاشم ابن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض الثراء ، وكان اذا حضر الحج قام فى قريش ، فقال :

يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وانه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم (١) فتجعل فى موضع زمزم ، ثم يستقى فيها الماء من البئار (٢) التى بمكة ، فيشربه الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن ، والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء ، فيسقون

(١) حياض الادم : هى حياض من جلد .
(٢) الابار .

بمنى ، والماء يومئذ قليل فى حياض الأدم الى أن يصدروا من منى فتقطع الضيافة وبتفرق الناس لبلادهم .

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر ، كان منهم شبيه الحمد وهو عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده . يطعم الحاج ويسقيه فى حياض من أدم ، الى أن حفر زمزم ، فأصبح يسقي الحاج من زمزم ، ويحمل الماء من زمزم الى عرفه فيسقيهم به .

وكانت زمزم سقيا من الله .

لقد ابى عبد المطلب فى المنام مرات ، فأمره بحفرها ووصف له موضعها فقيل له .

« احفر طيبة » .

فقال : وما طيبة ؟ .

فلما كان الغد أتاه ، فقالوا : « احفر برة » .

قال : وما برة ؟ .

فلما كان الغد أتاه ، وهو نائم فى مضجعه ذلك فقال : « احفر المضنونة » .

قال : وما المضنونة ؟ .

أين لى ما تقول ؟ .

فلما كان الغد أتاه ، فقال : « احفر زمزم » .

قال : وما زمزم ؟ .

قال : « لا تنزح ولا تذم ، تسقى الحجيج الاعظم ، وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاعصم » .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل الى الماء فكانت زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكماء قريش، وتؤثر عنه سنن ، جاء القرآن بأكثرها كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى من قتل الموءودة(١).

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها ، وأمده جسما ، واحلمه حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط الا اكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات » (٢) .

عبد الله :

أما عبد الله ، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « انى لأعرف فيك نسك أبيك » .

واذا نظرنا اذن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية والده وأسلافه ، ومن ناحية والدته وأخواله ، فاننا نجدهم ــ خلقا وعراقة أصل ــ من أشرف بيوت مكة وأكرمها ، وأسماها بشهادة المؤرخين جميعا ، فكان

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق

(٢) أنظر طبقات ابن سعد

صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يقول بن هشام :

« أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه وأمه » .

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :

« ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلة ، كما تجد النساء ، الا انى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود ، وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى .

فقال : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل ، ثم أمهلنى حتى اذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال :

قولى : « أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى فقلن لى : تعلقين حديدا فى عضديك وفى عنقك ، قالت : ففعلت .

قالت : فلم يكن ترك على الا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعلقه » .

ويقول أبو جعفر محمد بن على : « أمرت آمنة وهى حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه :

« أحمد » .

ورأت أمه حين ولدته كأن نورا سطع منها أضاءت له قصور الشام :

وولدته صلوات الله وسلامه عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد ، لما أرادته الحكمة الالهية : من اخراج البشرية من الظلمات الى النور .

كان ميلاده تمهيدا لذلك ، بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، فى هذه الفترة التى سبقت الرسالة ، أحاط رسول الاسلام بعنايته ورعايته ، ليكون أهلا لأن يحمل رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للانسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر الصلة بينهما وبين الله .

وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع : حاكما كان أو محكوما ، زوجا كان أو ابا أو ابنا أو أخا أو رئيسا فى العمل أو عاملا . الى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف ، وترمز الى ذلك كتب السيرة النبوية ، رموز جميلة فتحدثنا :

« انه فى ليلة ميلاده صلى الله عليه وسلم غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع ايوان كسرى ، وخبت نار الفرس » .

أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة فان مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والايام .

ان عهد الشرك هذه والضلال والانحراف والظلـــــم والإستعباد ! .

بدات تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم واصبح أمر النور والهداية والرشاد وشيك الظهور والانتشار .

وسمى المولود « محمدا » .

اما سبب هذه التسمية فانه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له :

« ما سميت ابنك » ؟ .

فقال : « محمدا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟ .

فقال : انى لأرجو ان يحمده أهل الأرض كلهم ، وذلك حسبما يروى السهيلى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب — وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب : « البستان » .

قال : « كان عبد المطلب قد راى فى نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق ، وطرف فى الغرب ، ثم عادت كأنهاه شجرة على ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها « فقصها » فعبرت اله بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه : محمدا ، وسمته أمامه من قبل : احمد فهو أحمد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد عن أسمائه فقال فيما رواه الامام أحمد :

« ان لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحي به الكفر ، وأنا العاقب » .

وقال فيما رواه الامام احمد أيضا :

« أنا محمد ، وأنا احمد ، ونبي الرحمة ونبي التوبة والحاشر والمقفى ونبي الملاحم » .

وكان من عادة العرب أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، ليرضعوهم في الصحراء المنطلقة مكانا وجوا ليشبوا في صحة تامة ، جسما وعقلا ومن أمثالهم ، العقل السليم في الجسم السليم .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء في مكة ، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة وعما صادفت فيها ذهابا وايابا ، وعما رأته من بركات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لقد كانت تقول :

« انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لهما صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وهي في سنة شهباء لم تبق لها شيئا » .

قالت : فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع وما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ، وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتاني فلقد أذمت (١) بالركب حتى شق عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله : محمد صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها « أنه يتيم » وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول :

(١) جاءت بما تذم عليه

يتيم : وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك فما بقيت امرأة قدمت الا أخذت رضيعا غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا انى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى الى شارفنا تلك ، فاذا بها حافل ، فحلب منها وشرب وشربت معه ، حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا ، تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة .

فقلت : والله انى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى أن صواحبى ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك . أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ .

فأقول لهن ، بل والله انها لهى هى .

فيقلن ، والله ان لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد : وما أعلم ارضا من ارض الله أجدب منها ، فكانت تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعياتهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت ابى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه لم يمكث عندها عامين قط : ذلك انها على رأس العامين ذهبت به الى مكة لتراه امه وليراه جده ثم عادت به أشد ما تكون حرصا عليه وعلى العودة به .

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل الى بادية بنى سعد مرة أخرى ، وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة الى البادية بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

أن الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الانسانية منذ أن وجدت الانسانية : تؤيد أن هناك اشاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطا ، فلا غرابة اذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها وتنشط دوابهما وأن تسير الرحلة فى رخاء وأن يكون محمد فى براءته وطهارته وفى طفولته الباسمة ونضرته المتـــــألقة : هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد بيت حليمة بهجـــــة وسرورا ، ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه . ويبارك الله في كل شيء فيه . وتنعم هذه الأسرة بحياة

هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ويزيد حنانها عليه ، فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان : وينغرس كل ذلك في نفسه ويمتلىء قلبه الناشيء ببذور أسمى العواطف والشيم .

ويتحقق منذ طفولته ــ بل والى أن تنتهى به الحياة ــ ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من انه لما توفى عبد الله قالت الملائكة :

« الهنا وسيدنا بقى نبيك يتيما » .

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير » .

نبي التوبة
صلى الله عليه وسلم

عن حذيفة رضى الله عنه قال : فيما رواه الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه :

« انه نبى التوبة » .

وللتوبة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفى الجو الاسلامى على وجه العموم شأن كبير ، ذلك أن التوبة انما هى تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الاخلاص .

واهمية الاخلاص اذا نظرنا الى الفرد ، أو نظرنا الى المجتمع ، لا تخفى على أحد .

واذا نظرنا الى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من زاوية التوبة والاخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح : فان أول ما يفجؤنا من ذلك انما هو هذا الحادث الذى ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه اذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلماء ــ على ما يروى الامام مسلم ــ أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ؛ ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه » .

وجاء الغلماء يسعون الى أمه ـ يعني مرضعته ـ : أن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ، لقد روى الامام أحمد وابن حيان والحاكم وابن عساكر عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

« يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة » ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » .

« اني لفي صحراء ابن عشر سنين واشهر ، واذا بكلام فوق رأسي ، واذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟ .

قال : نعم .

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا الى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه فأضجعاني بلا قسر (١) ولا هصر (٢) .

وقال أحدهما لصاحبه :

« أفلق صدره » .

---

(١) القسر : الاجبار

(٢) الهصر : ثني العصـوم من رأسـه ، والمعنى : لم يثنيا ظهري ولم يكرهاني

فهوى أحدهما الى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له :

أخرج الغل والحسد فأخرج شيئا كهيئة العلقـــة ثم نبذها فطرحها فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز ابهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم .

« فرجعت بها أغـدو رقة على الصغير ، ورحمـة للـكبير » .

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين أتاه آت بينما كان فى الحطيم أو فى الحجر مضجعا بين النـــائم واليقظان ، أتاه فشق عن صدره ــ حسبما يروى البخارى ومسلم ــ واستخرج قلبه ! .

« ثم أتيت بطست من ذهب مملوء أيمانا ، فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد » .

وتكرر المعراج فتكرر شق الصدر . فعن أبى بن كعب ــ فيما رواه الامام أحمد والامام مسلم ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه » .

ولا يعنينا هنا لا فى قليل ولا فى كثير ، أن نجارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر :

فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان .

والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه الى المماحكات التى تشعر بضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر الى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وأن من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنية الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

ان الله سبحانه وتعالى ــ وقد شاءت ارادته ، منذ الأزل ، أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ــ أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكامل .

والانسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والاخلاص ــ أو بتعبير آخر ــ بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ، وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملأوا سكينة .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملأوه رأفة ورحمة .

فكان صلوات الله وسلامه عليه : رأفة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملأوه ايمانا .

ثم شقوا عنه فملأوه حكمة .

واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الكامل للانسان الكامل ، فان لنا فيه أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر انما هى : التوبة .

وتوبتنا الى الله اذن توبة نصوحا : وانما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين ، بل وعن جو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، هؤلاء

الذين يقول الله فيهم : « عسى الله أن يتوب عليهم » (١) .

ان الله يعبر فى شأنهم بكلمة « عسى » والتوبة النصوح تخرجنا من جو « عسى » لتضعنا فى جو : « مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصى : حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين : عهد سيطرة الشيطان ، سيطرة كلية او سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة او سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطبا الشيطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » (٢) .

وبمجرد أن ينزع الانسان سلطان الشيطان فى صورة من العزم المصمم وينطوى تحت لواء الله فى صورة من اليقين المطمئن ، فان الله سبحانه وتعالى ، يتولاه ويتكفل به .

بل ان رعاية الله سبحانه وتعالى : تبدأ مع الانسان منذ أن يبدأ فى الاتجاه اليه سبحانه وتعالى مباشرة ، وبدء الانسان فى الاتجاه الى الله ، انما يكون الاستغفار فاذا بدأ الانسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له ، يقول الله تعالى :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » (٣) .

وكلما ازداد الانسان اتجاها الى الله ، واقبالا عليه ، وتقربا منه وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

---

(١) التوبة : ١٠٢ (٢) الاسراء : ٦٥

(٣) نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢

« ومن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب الى ذراعا تقـــــربت اليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

ان حياة النفوس والعمل الصالح ، أهم عنصر لسعادة الانسان فى حياته الدنيا وسعادته فى الحياة الآخرة والله سبحانه وتعالى يبين ذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :

« من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوايعملون»(١) .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢) .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣) .

التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايته ، واللبنة الاولى فى أساس كل ذلك : انما هى التوبة ، أو هى : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه انه سبحانه وتعالى ــ فيما رواه الامام مسلم ــ : « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ويقول سبحانه :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وانيبوا الى ربكم وأسلموا له » (٤) .

وتوبة العوام انما هى من الذنوب والآثام ، أما الخواص، فانهم لا يتوبون من الآثام والمعاصى ، فذلك ميدان قد

(١) النحل : ٩٧ (٢) الاعراف : ٩٦

(٣) الطلاق : ٢ ، ٣ (٤) الزمر : ٥٣ ، ٥٤

تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه :
ومع ذلك فانهم يتوبون الى الله ويستغفرونه مصبحين ،
ويستغفرونه سبحانه ويتوبون اليه ممسين ، بل
يستغفرونه ويتوبون اليه تعالى فى كل وقت وحين :
خضوعا له وخشية منه ، وتقربا اليه ، وخوفا من الكبر
الخفى ، أو الغرور المستتر . أو الغفلة التى قد لا يشعر
بها الانسان .

لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى ترقبه
الدائم ، وفى أنواره التى تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر
الله ، ويتوب اليه استغفار عبادة وتوبة انابة وقربى .
يقول صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه الامام
البخارى ـ .

« والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من
سبعين مرة » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما
رواه الامام مسلم ـ : « يا أيها الناس توبوا الى الله
واستغفروه ، فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة » .

بيد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة ـ
عن عالم الغيب ـ ونؤكده لطلاب الايمان المطمئن : هو
أن وسيلة ذلك : انما هى : التوبة النصوح ، انها تستخرج
حظ الشيطان ثم تأتى بالسكينة ، والتوبة النصوح :
سبب مباشر ـ بتوفيق الله ـ لملء القلب ايمانا ، بعد أن
امتلأ رأفة ورحمة ، ثم انها السبيل لتنزل الحكمة ـ وهى
المعرفة اللدنية ـ أرسالا ، فيفيض بها القلب هداية
وارشادا :

« واتقوا الله ويعلمكم الله » (١) .

وان من التزم العبودية ـ واللبنة الأولى فيها انما هى

---

(١) البقرة ٢٨٢

التوبة ـ : فان الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علما .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى سن مبكرة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه ـ كما تقول السيدة آمنة :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة ـ حينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شابا فتيا قويا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفى هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه وأراد الله ، أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » .

أما هاتان المرتان : فان سيدنا عليا رضي الله عنه : يتحدث عنهما ـ على ما يروى ابن كثير ـ فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن فى رعاء غنم أهلها ـ فقلت لصاحبى :

« ألا تبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان » ؟ .

فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ .

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبى فقال : ماذا فعلت ؟ .

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ، ففعل فدخلت فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته تلك الليلة فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شىء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك ، حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته :

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

أما ما كان من أمر عباد الأصنام ، فان القصة التالية توضح الأمر :

عن ابن عباس ، قال : حدثنى أم أيمن ، قالت : كانت بوانة صنما تحضره قريش تعظمه : تنسك لك النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يوما الى الليل وذلك يوما فى السنة .

وكان أبو طالب ، يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه

فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع الينا مرعوبا فزعا فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال :

« انى أخشى أن يكون بى لمم » (١) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك ، فما الذى رأيت ؟

قال :

« انى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل أبيض يصيح بى وراءك (٢) يا محمد : لا تمسه » . قالت :

« فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحا مستفيضا وتوضيحا كاملا ، وتعبيرا تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« أنه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والزكاة ، ومجانية المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مبينة لهذه القاعدة فيقول :

(١) مس من الجنون (٢) ارجع وراءك

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى ازاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره .

ودعى الى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم » :

ومضت فترة الشباب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه .

الـــــــــوحى

ما قبل الوحى :

ان كتب السيرة : لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل بعثته . الا بالنذر القليل ــ القليل جدا ــ ويمكن تلخيص ذلك فى صورة مجملة ــ كما يلى :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى الاربع سنوات : عادت به حليمة رضى الله عنها ، الى أمه : آمنة بنت وهب . فلما بلغ ست سنين خرجت به الى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين، فنزلت به فى دار النابغة، فأقامت به عندهم شهرا .

ثم رجعت به الى مكة : فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت هناك ولم ينس الرسول صلوات الله وسلامه عليه المكان الذى دفنت فيه أمه . فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « ان الله قد أذن لى فى زيارة قبر أمى » . ثم أتاه فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن : على البعيرين اللذين كانا معهما :

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قبضه اليه جده : عبد المطلب وضمه ورق

عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك : « دعوا ابنى انه ليؤنس ملكا » .

ورآه مرة عبد المطلب بعيدا عن رعاية أم أيمن ، فقال لها : « يا بركة لا تغفلى عن ابنى ، فانى وجدته مع غلمان قريبا من السدرة وان أهل الكتاب : يزعمون ، أن ابنى هذا نبى هذه الأمة » .

ولما توفى عبد المطلب ، قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام الا فى جنبه ، ويخرج فيخرج معه وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان اذا أكل عيال أبى طالب ، جميعا أو فرادى لم يشبعوا واذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكان يفضل من طعامهم ، وان لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لمبارك » .

واستمر أبو طالب فى رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يسلمه قط ، ولم يخذله ، الى أن توفى للنصف من شوال فى السنة العاشرة من حين نبىء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى بصدد أبى طالب : أن العباس قال : « يا رسول الله أترجو لأبى طالب ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الخير أرجو من ربى » .

وفى هذه الفترة التى قبل البعثة : كان يتحاكم الى الى الرسول .

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم الى رسول الله فى الجاهلية قبل الاسلام ، ثم اختص فى الاسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضـــاؤه صلى الله عليه وسلم فى الخلاف الذى كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فانه حينما انتهوا فى بناء الكعبة الى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ، واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة . فيكون هـو الذى يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بنى شيبة فلما رواه قالوا : هذا هو الأمين ، قـد رضينا بما قضى بيننا، ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه . وبسطه فى الأرض ثم وضع الركن فيه ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعـة . وكان فى الربع الثانى ، أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث ابو حذيفـة ابن المغـيرة . وكان فى الربع الرابع ، قيس ابن عدى . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليأخذه كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ذلك .

وفى سن الخامسة والعشرين ، تم زواجه صلوات الله عليه وهناك نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منبه تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد : امرأة حازمة شريفة ،

مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ ، أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا : وكل قومها : كان حريصا على الزواج منها ، لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتنى دسيسا الى محمد ، بعد أن رجع فى عيرها من الشام فقلت :

يا محمـــــد ما يمنعك أن تتزوج ؟ « فقال ما بيدى ما أتزوج به » قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة الا تجيب ؟ قال : « فمن هى ؟ » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قالت : قلت : على ، قال : « فأنا أفعل » ، فذهبت ،فأخبرتها فأرسلت اليه : أن ائت ساعة كذا وكذا وأرسلت الى عمها فحضر وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ : بنت أربعين ، ولدت قبل عام الفيل بخمسة عشرة سنة .

وفى ظل الحياة الزوجية : عاش صلوات الله وسلامه عليه ، عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ، ما كان يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى ، وهكذا نشأ صلى الله عليه وســـــلم ، طاهر النفس كريم الخلق ، مجانبا للمذمومات ، مجانبا للرجس :

لقد سارت به الحياة نقيـــــة طاهرة : فكانت شرحا وتفسيرا . لمـــا سبق أن تحدثنا عنه : من شق صـــدره الشريف ، واستخرج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه فى طور الشباب : النضج الــــــكامل والرجولة الرشيدة .

لقد كان صادقا فى حديثه ، عطوفا على من حوله ،

معينا للضعفاء يكتسب ثقة كل من يخالطه .

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضوان الله عليها .

ولكنها رضى الله عنها : أحبته لشيء آخر هو : السمو الروحى وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفانية ، والاتجاه الى الخالد من معالى الأمور .

ان عناية الله : رافقته ، ولاحظه ووجهته فكان خيرا زكيا وكان أمة وحده وسط هذا الضلال الدينى والأخلاقى الذى كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم .

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه « الأمين » .

لقد كان أمينا على نفسه : فلم يسلمها الى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس . وكان أمينا على الناس : فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس بالنميمة ، ولم يغتب .

وكان أمينا على الحديث اذا تحدث : فلا كذب ولا مغالاة .

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها .

انه : « الأمين » .. أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعه فى الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم — كما قدمنا — ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة ، حينما رأوا محمد وصاحوا انه « الأمين » رضينا ، انه محمد .

الوحى : ولقد حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، أى : (يتعبد) الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينتزع الى أهله ، ويتزود لذلك . ثم

يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ليعتكف فى غار حراء متعبـــدا حتى قالت العرب : « ان محمدا قد عشق ربه » .

ولكن أما آن لهذا الضـــلال الذى يخيم على مكة ان ينقشع .. ؟

أما آن لهذه الظلمة أن تنجلى ؟ .

أما آن لهذه الأصنام ان تتحطم ! .

أليس هناك أمل فى قبس من نور . أو اثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى والرشاد !؟ ..

ويلجأ رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الى الله ، يستغيث به ، ويستعيذه ، ويرجوه ، ويلح فى الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضى الأيام وهو فى كفاح المستميت ، وجهـــــاد المستبسل ، يتجه الى الله فى الصباح ، ويتجه اليه فى الظهر ، ويتجه اليه فى الآصال ، ويتجه اليه فى مغيب الشمس ، ويتجه اليه حينما تلمع الكواكب .

انه مهاجر الى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من انفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل همسة من همسات الضمير :

ان حياته كلهـــا لله ، ومع ذلك فان الأيام : تمر ، والسنين تمضى ولا يزال الظلام مخيما فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شارة الضلال وعلم الانحراف .

ويضاعف الرسول صلى الله عليه وسلم خضـــوعه

وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاوز الأمل والخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء الى الله حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية ، وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور .. فلما استوت علي الجودى ولما كاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار .. وفى ليلة من الليالى . بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم معتكفا فى غار حراء كعادته كل عام . وفى شهر رمضان المبارك ... تحطم نهائيا ذلك الحـــاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الالهى والاجتباء الربانى من جانب آخر أو بتعبير آخر ـ ذلك الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوءة .

لقد جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك . فقال :

« اقرأ » .

قال : « ما انا بقارىء » .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم ارسلنى فقال :

« اقرأ » .

قلت : ما انا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

« اقرأ » .

فقلت : ما انا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم ارسلنى فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانســان من علق ، اقرأ وربك الأكرم » (١) .

---

(١) العلق : ١ ، ٢ ، ٣

فرجع بهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملوني ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفـل ابن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة .

لقد كان ورقة : عربيا اصـــــيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغانى ـ : « احد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية اذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية .

يقول الامام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة فى الأوساط المؤمنة :

لا شيء ممـــا ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويودى المـــال والولد

لم تفن عن هرمز ، يوما خـــزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدا

ولا سليمان اذ دان الشـــعوب له
والجن والانس تجرى بينها البرد (١)

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد فقال :

« قد رأيته فى المنام : كأن عليه ثيابا بيضا ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة : معروفا بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والاخلاص المخلص ، وقد كان فى فترة بدء الوحى هذه : « شـــــيخا كبيرا قـــد عمى ، أى انه مر بالتجارب الكثيرة فى الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو الا حسن الخاتمة ، والعمل ـــ ما استطاع ـــ فى سبيل الله .

من اجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه اليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن أخيك » .

فلما أخبره رسول الله صـــــلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، قال ورقة دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو : الناموس الذى نزل الله على موسى » .

قال ذلك فى يقين جارم ، وفى ايمان مؤمن .

أما الأسباب التى دعت ورقة الى هذا القول : فان منها لا شك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لقد كانت حياة طاهرة عفيفة ، كان صـــلوات الله وسلامه عليه عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجـــاه

(١) البرد : جمع بريد ، رعو :الرسول

المفتعل ، وكان بعيدا عن ان يكون عبدا للدنيا .

ولقـــد سمع ورقة حديثا يعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق . وسمع هذا التعبير البرىء عن عنصر المفاجأة فى الموضوع . ان الحـــديث لا يتسم بمنطق مروى . ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة ايا كانت للتلبيس والزيف . انها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجأه فى خلوه يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاءه ، وفاجأه بأمر لم يكن له على بال .

« اقرأ » .

« ما أنا بقارىء » .

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له من جديد : « اقرأ » وتكرر ذلك .

ورجع رسول الله صلى الله عليـــه وسلم « يرجف فؤاده » .

لقد غمره الروع ، وما أن وصـــل الى المنزل حتى صاح :

« زملونى زملونى » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة رضى الله عنها ما رأى ثم قال :

« لقد خشيت على نفسى » .

ان كل ذلك : برهان واضح على الصدق ، وعلى الاخلاص ، فاذا ما أضيف ذلك الى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فان ثمرة ذلك : التصديق والايمان .

بيد ان النور الذى غمر ورقة ، انما كان اشعاع قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » (١) .

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ! .

لم يملك آمن بأن هذا الذى ابتلى — انما هو : وحى من السماء .

ان : « اقرأ باسم ربك » . تنص على أن القراءة . لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة اقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وانما هى : باسم الله ، واذا كانت باسم الله ، فانها تفيد الشخص ، باعتباره فردا ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » وتفيد المجتمع الاسلامى العام ، بل وتفيد الانسانية جمعاء .

واذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الاول والأخير هو : الله : مصدر الخير والنور . كانت خيرا ، وكانت نورا فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب وانما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتيه الانسان فى الجانب الايجابى وكل ما يدعه الانسان فى الجانب السلبى .

ان هذه الكلمة الأولى : تريد ان تقول : « اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك . . أما اذا امتنعت عن حركة أو فعل : فينبغى أن

---

(١) العلق : ١

يكون ذلك أيضـــــا باسم ربك ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسبابا وغايات لله سبحانى وتعالى » .

واذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى فى الجانب الايجــابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث عن أن تكون القراءة باسم الله . فان الجانب السلبى ، قــد نزلت فيه ــ فيما بعد ــ آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

« ولا تأكلوا ممــــا لم يذكر اسم الله عليـــــه ، وانه لفسق » (١) .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ، فهو أيضا فسق . لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه اذن يجب الامتناع عنه .

أما الاقدام عليه فانه فسق يتفاوت فى درجته ، من الرجس زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الاسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الاخلاص ، وعلى قمة الاحسان وفى خضم من التقــــوى ، وعلى السنام من الصدق . فما « دامت الحياة كلها لله : فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفـــــاق ، والخديعة وارادة غير الله بالأعمال » .

---

(١) الانعام : ١٢١

إقرأ ..والتربية

ويقول الله تعالى فى هذه الآية الأولى .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » (١) .

ولم يقل : اقرأ باسم الله . ذلك : لأنه أراد سبحانه ، منذ البدء أن يشير الى أن هذا الدستور الالهى النازل من السماء انمـــا هو تربية انه ينزل باسم المربى ، وما دامت هذه التربية الهية المصدر فهى اذن محكمة الاحكام كله ، كاملة فى جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى — فيما بعد — عن هذا الدستور :

« كتـــاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٢) » .

وقال الله تعالى :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٣) .

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيـــدة ، وجانب الأخلاق وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الالهى على التوالى مبينا . لكل هذه الجوانب مفصلا لها ، ولكن الله سبحانه وتعالى

---

(١) العلق : ١ (٢) هود : ١.
(٣) فصلت : ٤٢

بين فى هذه الآية التى بين أيدينا . ان هذه التربية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد لأنها من الذى خلق ، ذلك أن الذى خلق ، كون كل خلية فى الجسم ونسقها مع غيرها . لتؤدى ويؤدى المجموع وظائف معينة هـذا الذى فعل ذلك ، محيط علما بالانسان المربى ، فهـذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق وانما هى تربية الخالق نفسه الذى أحاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج اليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع وعرف الخير والشر ، فتربيته اذن قيادة على علم وهداية ، على بصيرة وهى من أجل ذلك كله «تربية خالدة» لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لأن الانسان ، هو الانسـان أينما وجد وأينما كان لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب .

إقــرأ .. والإخـــلاص

حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى ... لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول ، لشخص تجرد الى الله ، ويدعوك أن تتجرد اليه ســـبحانه ، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاها ، ولا زعامة ، ولا ملكا انه يريد أن تقرأ الانسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم فى كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له ؟ أيمكن أن تقول له انك كذاب ، فما هو الصدق اذن ؟ .

أيمكن أن تقول له : انك منافق ، فأين هو الاخلاص ؟ ان هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماعها الى الايمان .

إقرأ .. والعلم

ونعود اليهـا من جديد ، ونرى اشارتها الى معان اجملناها فيما سبق ، ونريد أن نفصل فيهـا بعض التفصيل :

كانت : « اقرأ » دعوة آمرة ، الى الثقـافة ، الى العلم ، الى الفكر ، الى البحث المستفيض فى السماء وفى الأرض ، وفى الجبال والبحار ، وفى كل ما خلق الله تعالى . من كائنات صغرت أم كبرت انها .. اقرأ باطلاق ، انها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد : اللهم الا أن تكون باسم الله .

ولقد اتسم الاسلام ، منذ هذه الكلمة بالطابع العلمى: كسمة تجاور السمات الأخرى ، التى سنتحدث عنها فيما بعد ان شاء الله تعالى .

« وقل رب زدنى علما » (١) : ذلك احدى شعارات المسلم ! ومن استوى يوماه ، فهو مغبون . ومن لم يكن الى زيادة فهـو الى نقصان وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وان مداد العلماء المتقين ليوزن فى ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء.

ان الله سبحانه وتعالى : قد امتن علينا فى آيات كثيرة من القرآن بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر : وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء .

والامتنان الالهى بهذا ، معنـاه : دعوة صريحة

---

(١) طه : ١١٤

للمسلمين أن يستجيبوا الى التوجيه الالهى ، فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الانسانية ولكن العلم والمعرفة فى الاسلام : لا يقتصران على الجانب المادى . لأن النظرة الحديثة الاسلامية ، أوسع بكثير ، وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التى تقصر العلم على الجانب المادى .

ان العلم المادى : علم تسخير الكون ، بحث عليه الاسلام ، ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم : تتمثل فى قوله تعالى : « وان الى ربك المنتهى » (١) .

وان : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى ، العلم : عبادة ، واذا كنا ـ كمسلمين ـ مدعوين الى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره فى سبيل الله ، وتذليله رجاء مرضاة الله فنحن ، بهذا : متجهون الى الله غير ناظرين الى هذا التسخير ، وانما الى الكون ، وبذلك : يكون التسخير نفسه عبادة .

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينحكها : فهجرته الى ما هاجر اليه » (٢) .

فالسيطرة على الطبيعة ، فى الوضع الاسلامى الصحيح هجرة الى الله .

انها قراءة باسمه ، فهى داخلة فى نطاق : « اقرأ باسم ربك » .

واذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد فى أعمالك وفى أقوالك .

والعلم فى الاسلام ، على الوضع الصحيح ، اذن : عبادة ، حتى فى الجانب المادى منه .

---

(١) النجم : ٤٢ (٢) من حديث البخارى باب بدء الوحى

ولا يتأتى : ولن يتأتى ، أن يقف الاسلام عقبة فى سبيل العلم ، وأن يتعارض الاسلام مع العلم الحديث .

ان مشكلة التعارض بين الدين والعلم . انما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الاسلامية التى حثت الانسانية على التعليم والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها والتى انشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أبحاثها العميقة ، وما من شك فى أن الحضارة الاسلامية ، هى التى قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة .

ان المنهج العلمى الحديث فى أوربا ، يرجع الى « روجر بيكون » فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ « بريفولت » فى كتابه « بناء الانسانية » فيقول عن « روجربيكون » :

انه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة، اكسفورد على خلفاء ، العرب فى الأندلس ، وليس لروجربيكون ولا لسميه الذى جاء بعده ــ الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن ، روجربيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية ، وعلوم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى : هى طرف من التحريف الهائل ، لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر ، « بيكون » ، قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على

تحصيله فى ربوع أوربا (١) .

ويقول ، « بريفولت » أيضا :

لقد كان العلم ، أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

ان العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها ، الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده ، هو الذى أعاد الى أوربا الحيـــاة بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوربية (٢) ا هـ .

واذا كان الاسلام ، هو الذى أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعى الا يتعارض معه .

على ان مسألة التعارض بين الدين والعلم ، انما هى مسألة وهمية اذا نظرنا الى حقيقة الأمر .

وذلك أن العلم دائرته : المادة والحس ، أما الدين ، فدائرته : « ما وراء الطبيعة » والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان فى الموضوع فكيف يتعارضان .

ان ملاحدة العصر الحـــاضر : يتوهمون مشـــاكل ، لا أساس لها ثم يضعونها على بساط البحث،ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن ، يضفى «الألف» عليها — وهى وهمية — صورة من ظلال الحقائق فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ، ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه ، لا اتحاد بين موضوعيهما .

---

(١) تجديد التفـــكير الدينى فى الاسلام ، تأليف محمد اقبال ، ترجمة الاستاذ عباس محمود

(٢) المصدر السابق .

العلم فى الاســـلام
أوســـع دائـــرة

واذا اقتصرت اوربا على العلم المادى ، فان الاسلام ، لا يقف عند ذلك ، وانما يوجه الانسانية الى مصـــدر آخر للعـــلم والمعـــرفة ، هو القلب او هو الروح والبصيرة .

ان الاسلام يوجه الانسانية الى المعرفة الاشراقية ، او الكشفية او الالهامية ، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمى الحديث الى الاتجاه البصيرى فى قوله :

« ان السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) ، فالسمع ، والبصر ، هما اساس العـلم المادى ، علم التجربة والملاحظة أما القلب : فانه أســاس العلم الالهامى .

ان الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم الى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضـــا الى الاستشراق ، للهداية والنور القلبى عن طريق الخلق الـــكريم ، والتقوى ، والاخلاص ، وحب الانسانية ، والمعاونة فى الخير .

واذا كان الاسلام ، أوسع نظرة ، فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فانه يختلف معها اختلافا جذريا حاسما فى مسألة الارادات والنوايا ، وفى

---

(١) الاسراء : ٣٦

أمر الاسباب والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والاهداف .

ان الحضارة الحديثة تقول :

العلم لا صلة له بالأخلاق .

أو تقول العلم لا أخلاقى .

والعلم فى نظرها ، لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الاسلام ، يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى الى الله ، ويجعل منه عبادة الله انه سبحانه يجعله باسمه الكريم .

ان العلم فى الجو الاسلامى قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الاسلام ، حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

تلك حقيقة فى الدين الاسلامى ، سواء نظرنا الى أساسه أو نظرنا الى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فانه « رحمة مهداة » .

---

(١) الانبياء : ١٠٢

الجهر بالدعوة
واثبات الرسالة

مكثت الدعوة اسلامية سرية (١) ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله وسلامه عليه بالجهر بها ، فصعد على الصفا فقال :

يا معشر قريش .

فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا .

فقالوا مالك يا محمد ؟ :

قال :

أرأيتكم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي .

قالوا : نعم .

أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط .

قال :

« فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

يا بنى عبد المطلب . يا بنى عبد مناف . يا بنى زهرة ... حتى عدد الأفخاذ من قريش .

---

(١) مرحلة سرية الدعوة ذات أهمية خاصة فى منهج العمل مع الجماعة اذ هى مرحلة اعداد القيادة المحلية .

ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا أملك لـكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا : « لا اله الا الله » .

واذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قـد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم فانه كان مطمئنا واثقا من أن حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحا . لقد كانت حياته ، البراءة الكاملة ، والطهر التام وهذا ما دعاه الى أن يتحدى ، فى صراحة وأن يعلن فى وضوح ، أن حياته تثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة ـ الصدق والاخلاص ـ فى كل من يحيطون به لما كان فى حاجة الى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفى الاخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الاخبار كثيرون ، لما توفر فيهم من الصدق والاخلاص لأنفسهم وللآخرين . أى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته . ولقد أقر بهـذه الصفة ـ صفة الأمانة ـ أبو سفيان ، فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول :

سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .

فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسأل هرقل أبا سفيان أيضا عما اذا كان قد أثر عن محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى .

فقال له هرقل : سـألتك هل يغدر فذكرت أن لا ،

وكذلك الرسل لا تغدر .

أما اثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى وهى القرآن ، وتحدى العرب به ، لقد تحداهم به فى عنف وتحداهم متدرجا بهم ، اذ طلب اليهم :

أولا : أن يأتوا بمثله فقال الله تعالى :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) » .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢) .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣) .

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله .

أما عن حياته صلوات الله وسلامه عليه : فان القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة .

لقد تحدث عنها فى صراحة لا لبس فيها .

وتحدث عنها فى اشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلا

---

(١) الاسراء : ٨٨ (٢) هود : ١٣

(٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

من ذلك ، نستنتج من الأخبار الكثيرة التي قصها منه :
جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقي الكريم :

١ ـ ولقد تجرد صلوات الله وسلامه عليه من كل مطمع دنيوى :

« قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله ، وهو على كل شيء شهيد » (١) .

٢ ـ ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، أربعين عاما ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة .

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » (٢) .

٣ ـ ويطلب اليهم القرآن الكريم أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هـذا الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

« قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد » (٣) .

ويشرح الزمخشرى هذه الآية شرحا لطيفا فيقول ما ملخصه :

انما أعظكم بواحدة ، ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصا ، اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا : « ثم تتفكروا » فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به .

أما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ،

(١) سبأ : ٤٧ (٢) يونس : ١٦
(٣) سبأ : ٤٦

متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده : من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الانصاف ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم : ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة . بل علمتوه ، أرجح قريش عقلا وآصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وانزههم نفسا ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير .

واذا فعلتم ذلك كفاكم ان تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

٤ ــ ويصف القرآن الكريم جانبا من جوانب حياته ، ويصف دعوته ايضا ، فيقول :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (١) .

واذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين ، فاننا نجد أن الآية الاولى تريد أن تقول :

انه حتى لو فرضنا أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا أو كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب . والقواعد والمبادىء التى يبشر بها ، كل ذلك ، آيات

---

(١) العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩

بينات فى صدور الذين أوتو العلم ، لا ينفيها ولا يجحدها الا الظالمون والظالمون فى كل آونة يجحدون الحق وينكرون المنطق السليم .

٥ ـ ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) .

ان الدعوة الاسلامية آيات بينات فى منطق الحق ، وفى منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا « أكثم بن صيفى » ، أحد حكماء العرب : ينتهج بفطرته السليمة ، هذا المنهج من الاستدلال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته .

يذكر « الآلوسى » أنه لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ، بمكة ودعا الى الاسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشا » ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم ـ فيما قال :

« ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف ـ عرف ـ ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« ان الذى يدعو اليه محمد ، لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق

---

(١) القلم : ٤

الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه ، حينما سأله النجاشى عن أمر دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم الى الحبشة مهاجرين اليها بسبب ما نالهم من من تعذيب أليم ، وأرسل القرشيون وفدا الى النجاشى ، فيه عبد الله بن أبى ربيعـــــة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين الى مكة ، ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص .

« انه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا « أى أبصر بهم » وأعلم بما تابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم ، رأى أن الحكمة ألا يسلم اليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ .

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك كنا قـــوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ..

فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من

دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقـــول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحـده ، لا نشرك بـه شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام ـ وعدد عليه أمور الاسلام ـ فصدقناه ، وآمنـا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا،وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبـــادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينـــا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك .

ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم بكى النجاشى ، ثم قال :

ان هـذا ، والذى جاء به عيسى ليخرج من مشـكلة واحدة .

ثم التفت الى عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص فقال لهما :

« انطلقا : فلا والله لا أسلمهم اليكما » .

لقد علم النجاشى ، فور سماعه المبادىء الاسلامية « ان هذه المبادىء حقة ، وأنها آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، واعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله عليه ، انما يصدر من المنبع الذى

كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام » .

وبعد . فان سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمبادىء الاسلامية من أهم الرسائل التى ينبغى أن يتجه اليها المبشرون بالدين الاسلامى لنشر الاسلام .

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق وجعل النظر فى الدعوة ، احدى الوسائل التى تسلم مع غيرها من الملابسات الى اليقين بصدق الداعى ، هـذا النهج الذى اتخذه هرقل والنجـاشى ، هو النهج الذى اقره الامام الغزالى ، فانك اذا أكثرت النظر فى القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضرورى بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله :

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله :

« من أعان ظالما ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله :

« من أصبح وهمومه هم واحد ــ هو التقوى ــ كفاه الله هموم الدنيا والآخرة » .

فاذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه ، بأنه صلوات الله وسلامه عليه ، على أعلى درجات النبوة .

ان النظرة الى الدعوة الاسلامية فى نظر الامام الغزالى هو أحد الوسائل التى تثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال، العالم الاجتماعى

الكبير ابن خلدون ، وهو يستوعب ـ فى نظرة عامة ـ الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات ، وننقل هنا ما كتبه خاصا بموضوع الاستدلال بالدعوة ـ حينما تكون الدعوة خيرا محضا ، كالدعوة الاسلامية ـ على صدق الرسول فيما يدعو اليه ، يقول :

ومن علامتهم ايضا :

دعاؤهم الى الدين والعبادة ، من الصلاة ، والصدق والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا فى أمره الى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفى الصحيح :

أن هرقل حين جاه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يدعوه الى الاسلام أحضر من وجد فى بلده قريش، وفيهم أبو سفيان ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف الى ... آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

ان يكن ما تقوله حقا فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدمى هاتين . والعفاف الذى أشار اليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء الى الدين، والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج الى معجزة فدل ذلك على أن ذلك ، من علامات النبوة » .

وشىء آخر له مجاله الكبير فى اثبات الرسالة ، ذكرته السيدة عائشة رضى الله عنها فى حديث « بدء الوحى » وهو : أن الله سبحانه حبب الى رسوله صلى الله عليه وسلم الخلاء فكان قبل الوحى يغادر مكة ،

ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التى كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير .

يتركها ليخلو بغار حراء فريدا يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبدا خاشعا طالبا رضاه ، آملا فى هدايته ، كان يتحنث فى هذا الغار ، أى يتعبد فيه الليـــالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ويتزود ليعود من جديد الى النسك ، والى العباد .

لم يكن اذن يطلب مالا أو ثراء أو لذة مادية أو جاها أو مجدا عند الناس ، انه يطلب الهداية ويبحث عنها :

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحا بينا فى قوله وسـلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو : ان عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا فى قومه ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، الا أقوم الى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء .

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه :

فقام اليه عتبة حتى جلس الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

« يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت ، من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد اسمع » :

قال : يا ابن أخي : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنـــــا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل : حتى يداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبة ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ .

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : افعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون : بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنه مما تدعونا اليه » (١) .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف

---

(١) فصلت : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .
فلما جلس اليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ »
قال : « ورائى : أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هوبالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .
يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه : فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .
قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .
قال : « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم » .
قد يقول قائل : انه لو عرض على محمد صلى الله عليه وسلم هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضا من زعماء قريش ، وينقضه أيضا الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة :
لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث ـ أخو بنى عبد الدار ـ وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض :
« ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه » :
« فبعثوا اليه : ان أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ـ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه » وكان عليهم حريصا : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ـ حتى جلس اليهم فقالوا له :

« يا محمد ، انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك ـ وكان يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على سأصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء وعن الدنيا كلها : تؤيد حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أولها الى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١) .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » (٢) .

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٣) .

وعن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : « دخلت على عائشة رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى كل ما يأتيه وفى كل ما يدعه قرآنا مطبقا ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى :

« وانك لعلى خلق عظيم » (٤) .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « أتى اليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم موضعها ــ كما يروى هارون بن رباب ــ على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ — (٢) الاسراء : ١٨

(٣) الحديد : ٢٠ — (٤) القلم ٤

العضاة ـ شجر عظيم له شوك ـ نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :

« مالي وللدنيا » ؟ .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « عرضت على الدنيا فأبيتها » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما يروى عن أنس رضي الله عنه ـ : أحب انسان الى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا اذا رأوه لا يقومون له ، لما يعرفون من كراهيته له « اى القيام له » ويقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

« ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

ويقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون حوله :

« ان مما أخاف عليكم من بعدى : ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع الى الدنيا فى مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١) .

عزوفه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا اذن : قضية هى من البداهة بحيث تفجأ فى النظرة الأولى ، كل دارس لسيرته صلى الله عليه وسلم .

وحينما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات، والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب

(١) آل عمران : ١٤

والفضة ، وانما ترك وراءه مبادىء الحق التى أوحاها الله اليه ، والتى مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله فى سبيل اقامتها ونشرها،ويكافح كفاحا لا يهدأ ولا يفتر فى سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهـــذه المبادىء ، ويثقون بأنهم مكلفون ــ باعتبارهم من المسلمين ــ بنشرها واذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرا يتضوع رحمة ويشع نورا ، منهـــا مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

انه صلى الله عليه وسلم هو تلك الصورة الحيـــة للتطبيق القرآنى فكان صلى الله عليه وسلم عازفا عن الدنيا ، ما فى ذلك من شـــك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرى ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتى وفيما يدع مرضيا لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتما .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى اخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعنى الا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها فى سبيل مرضاة الله : من واجبـــات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائما فى سبيل الله ، ومن أجل مرضاته ، وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك فى الخير واسعاد الانسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الاسلام والسلم ، وعن الاسلام وتسخير المادة وقلنا : أن ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله وسلامه عليه ، عن الدنيا : من أقوى الأدلة على صدقه ، وعلى اخلاصه .

الإسـراء والمعـــراج

وترقى به الى قـاب قوسـ
ـين وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى
دونهـــا ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا
اذ أتته من ربه النعمـــاء

يقول الله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (1) .

ويقول سبحانه :

« والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمـــه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟! . ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ،

(1) الإسراء : ١

ما زاغ البصر وما طغى ، لقـــد رأى من آيات ربه الكبرى » (١) .

هذه هي الآيات القرآنية عن الاسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية : فانها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا يكمل بعضها بعضا .

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فانه معروف عادة للمسلمين وانما الذى يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخـــلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن اسحاق ــ حسبما يروى ابن هشام ــ لحديث الاسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :

« وكان فى مسراه ، وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ، وامر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة ، لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من امر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ومجمع الأمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما كان نائما ، أتاه جبريل ، فأيقظه وخرج معه ، فاذا أمامهما دابة بيضــاء هى البراق ، وركبها رسول الله وسارت الدابة ، وجبريل معه ــ على حد تعبيره صلى الله عليه وسلم « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى الى بيت المقدس .

(١) النجم من ١ ــ ١٨

فوجد فيه ابراهيم ، وموسى ، وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى بهم، ثم أتى باناءين ، بأحدهما : خمر وبالآخر لبن، فأخذ رسول الله صلى الله وسلم اناء اللبن ، وشرب منه ، وترك اناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر » .

تروى كتب السيرة أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : أتاه ليلة الاسراء آت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه . ولما انتهى صلوات الله وسلامه عليه من بيت المقدس عرج به الى السماء واخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعا الى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات » .

وحياه الله سبحانه وتعالى :

« السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » :

وفى هذه اللحظات الخالدة ، التى لا يتأتى أن توصف، فرض الله سبحانه وتعالى ، الصلاة على الأمة الاسلامية .

عن ابن عباس رضى الله عنه — فيما رواه الامام أحمد — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لما كانت ليلة أسري بي ، واصبحت بمكة ، فظعت امري ، وعرفت : أن الناس مكذبي » .

قال فمر عدو الله : أبو جهل ، فجاء حتى جلس اليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

هل كان من شيء ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

قال : ما هو ؟ .

قال : انه أسري بي الليلة .

قال : الى أين ؟ .

قال : الى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ .

قال : نعم :

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث ، اذا دعا قومه اليه .

قال : أرأيت ان دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

فانطلق أبو جهل الى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بني كعب بن لؤي .

قال : فانتفضت اليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا اليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتني .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اني أسري بي الليلة .

قالوا : الى أين ؟ .

قال : الى بيت المقدس ؟ .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ .

قال : نعم .

فاذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب ... زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت » .

قال : فجيء بالمسجد ، وأنا انظر حتى وضع دون دور عقيل فنعته وأنا أنظر اليه .

قال : فقال القوم ، أما النعت فوالله : لقد أصاب .

وعن الحسن ، انه فى يوم الحديث عن الاسراء ، ارتد كثير ممن أسلم ، وذهب الناس الى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك ، يا أبا بكر فى صاحبك ؟؟ .

يزعم انه قد جاء هذه الليلة ! بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة .

فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه .

فقالوا لا : هو ذاك فى المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ .

فوالله ، انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض ، فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس

هذه الليلة ؟ .

قال : نعم .

قال : يانبى الله ، فصفه لى ، فانى قد جئته ؟ .

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لى حتى نظرت اليه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله ، كما وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

وأنا يا أبا بكر : « الصديق » فيومئذ سماه الصديق .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب ! لهـــذا النبأ الجليل ! يسمعه قوم فلا يصل الا الجوانب الظـــاهرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى أكان ذلك فى اليقظة؟ أم كان ذلك فى النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟ .

وهل كان ليلا ؟ أم كان نهارا ؟ .

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف وزن الايمان فى النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل الى أعماق قلوبهم فيتجهون فى صورة طبيعية ، الى مغزاه العميق ، والى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الـكرام ... من هذه التوجيهات :

١ ـ لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله الى العـــالم

بين الفينة والفينة : لتهدى الى الرشاد ، ولتقود الى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم الى الكمال المرجو ، عن طريق الارشاد الالهى وكان الكتاب الذى أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وهو : القرآن ، خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنا عليها .

ولأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو اذن : أكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من هنا كانت امامته صلوات الله وسلامه عليه ، بالرسل والأنبياء فى بيت المقدس ، ولأنه صلوات الله عليه أكمل رسول ، كان من أجل ذلك : أقرب المقربين الى الله سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل الى ما لم يصل اليه بشر ، بل الى ما لم يصل اليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله وسلامه عليه الى : « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه اخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ ، معنى مكانى ، فانه أيضا ــ بل وبطريق أولى ــ معنى روحى أى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه الى درجات تجاوزت ــ فى روحانيتها ــ آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى

سمائه الثالثة ... وهكذا حتى تجاوزت روحيا ابراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة .

ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله الى سدرة المنتهى ، الى شجرة النهاية، الى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبى مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقـــام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الالهى ... ينزل بنا منحدرا ، فيجادل فى الاسراء والمعراج : أكان رؤية .. أم كان يقظة ؟ .

أستغفر الله ، وأتوب اليه ...

ان ذلك الجدل ، ان دل على شىء ، فانما يدل على ضعف الايمان فى قلب المجادل .

٢ ـ واذا كانت التوجيهات السابقة : انمـــا كانت لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فتزداد بذلك تقديرا ، وحبا واتباعا ، فان من هـدى الله سبحانه وتعالى ، وتوجيهاته فى نبأ الاسراء والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق .

والواقع ، أن الأخلاق فى جو الاسلام : مرتبطـــة بالدين ارتباطا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أســاسه تقوم ، وعنه تصدر ، انها جزء من الدين الاسلامى ، لا يتجزء ، مصدرها ، هو مصدر الهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحـــديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق : الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

ان الضمير يصنع كما تصنع المزيفـــات ، وهو اذن مقياس للأخلاق خاطىء .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة ، كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة ، انمـــا يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة او غير منحرفة .

والمصلحة العامة اذن ، كأساس للأخلاق ، انما هى أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة الشخصية ، او الى اللذة ، أو الى المنفعة ، وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !! .

اما وارد الشرق الاسلامى : أو بتعبير أدق ، وارد الاسلام الالهى فان مقياس الأخلاق فيه : انما هو المبادىء الدينية ، انما هو آيات القرآن ، وانما هو النضال التى أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين .

وتحدث عنها نبأ الاسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة :

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسراه فمر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟ .

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة الى سبعمائة ضعف ؛ وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا ياجبريل ؟ .

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة :

ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع ، وعلى ادبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم .

فقال : ما هؤلاء ؟ .

قال : هؤلاء هم الذين لايؤدون زكاة اموالهم وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب فى قدر طيب ، ولحم خبيث نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النىء ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ .

قال جبريل ؟ هذا مثل الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امراة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمـــــع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ! ..

قال : هذا مثل الرجل من أمتك ، يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

قال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على حجر صغير يخرج منه : ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

فقال : ما هذا ياجبريل ! .

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتا .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت غرفي ، واستبرق ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقريى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بى شيئا ،

ولم يتخذ من دونى اندادا ، ومن خشيتى فهو آمن ، ومن يسألنى فقد أعطيته ، ومن اقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، انني أنا الله لا اله الا أنا لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت : قد رضيت .

ثم اتى على واد فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحهـــا منتنة .

فقال ما هذا يا جبريل ! .

قال : هذا صوت جهنم تقول ، رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ ــ ومن الثمار التى جنتها الأمة الاســـلامية والتى كانت من مقاصد اذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشـــاكين والمترددين ، انفصال كل هؤلاء عن الأمة الاسلامية الناشئة .

لقد كفر ــ عند سماع النبأ ــ من كفر بعد اسلامه ، وارتد من ارتد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا الا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة .

ان هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث

القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ، ان هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الاهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، ان هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة في نشأتها ، والذين من اجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين ، لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات نقول :

ان هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية : اذاعة نبأ الاسراء والمعراج، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة، وعن ايمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، ايمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما يأتى به ، بصدقه بمجرد انبائه .

والمثل الأعلى فى كل ذلك : انما هو سيدنا أبو بكر ، حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى ان الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون به » .

هذا الايمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله وسلامه عليه يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه « الصديق » ، « الصديقية » مرتبة من مراتب الايمان لا ينالها الا من جاهد نفسه جهادا تخطى به ايمان العامة وسما فى ايمانه درجة درجة الى أن أصبح قائما بالله متجها اليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الاسلامية بأكملها : مطلوب منها بالنسبة الى اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه تلقى بقيادها الى أخباره ، وتسلم نفسها الى أنبائه ، مصـــدقة تصديقا كاملا : تصديقا يحملها على العمل وعلى أتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه تصديقا ايجابيا يحقق للأمة الاسلامية المجد الذى نرجو ، تصـــديقا ينفى عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الاسلام . فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم : فى احاديثه ، وفى سنته زاعمين أنهم من المجددين ، وما هم فى الواقع الا ابواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

ان هذه الأقلام التى تشكك فى السنة وفى الأحاديث النبوية : ليست الا أقلاما مقلدة للمستشرقين لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، انما تحمــل طابع التقليد وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الايمان ، ويتنافى مع الصديقية .

٤ ـ اما ثمرة الاسراء والمعــراج ، وأما هدية الاسراء والمعراج وأما أعظم المنح الالهية فى الاسراء والمعراج ، أعظمها على الاطلاق .

أما النعمة العظمى : والتجلى الالهى الأكبر فى الاسراء والمعراج فانه ، الصلاة .

ولا يتأتى لنا ـ عجزا وقصـــورا ـ أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الاسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هي : الصلة به سبحانه ، وهي الكيفية ، وهي

الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

انها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل — ويجب أن يكون كاملا — من عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة . لتخلص النفس الى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه .

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين انما هى : اقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك . هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة — يقيمها الانسان ، كما أراد الله ورسوله — من أنجع الوسائل فى القرب من الله ، انها : البراق الذى يحتاز به المؤمن — فى سرعة سريعة — طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل اليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الاسراء ، والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما . هى التى يجب أن نتنبه اليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

ان الله سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء الهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن الجنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى   دونها ما وراءهن وراء

ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى

بنا في سرعة سريعة دون سابق انذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوي من الشرك ، يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا فقال سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات الالهية :

«أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى؟» (١) .

لقد أرانا سبحانه : بهذه الكلمات : البشرية المسكينة في ضلالها الديني وفي انحرافها الذهني .

ان كل من يترك هذه الآفاق العليا ،ويتجاوزها ليتحدث عن : أن الرسول صلى الله عليه وسلم أسرى بجسمه وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة أو مناما : انما هو بذلك ينحدر بنفسه مختارا من التجلي الالهي ، ليهوى بها منتكسا الى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكسا من جو سدرة المنتهى ، الى الجو المادي : ومن مجالات النور السماوي المتلألىء الى ظلمة الجدل وزيغ المماراة في الدين .

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين :

« ربنا لا تزغ قلوبنا ، بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب » (٢) .

---

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠

(٢) آل عمران : ٨

الهجـــــرة

بالجلال الايمان وثباته وقوته ! .

ان التاريخ : نادرا ما يحـدثنا عن هجرة خالصـة مخلصة ، لله ولرسوله ، هجرة الى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر عما اذا كان مهجره سيستقبله مرحبـا ويؤويه فى الفة ، أم أنه سيقابله بالجفوة والعـــداوة . هجرة لم يمهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان .

ان التاريخ : لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالايمان ومن أجل الايمان .

ولكن التاريخ الاسلامى حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فانه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الايمان ، وكثر الحديث عنه ، ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم ، وسجنوهم ، وارادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب الوانا فى سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شفقة عليهم ورحمة ! .

« تفرقوا فى الأرض » .

فقالوا : اين نذهب يا رسول الله ؟ !

فأشار اليهم ، الى الحبشة ، فهاجر اليها في بادىء

الأمر طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردا .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم الى مكة معتقدا ان الامور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا الى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديدا .

فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالخروج الى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية اعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان رضى الله عنه ، مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة الى النجاشي ولست معنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون الى الله والى ، لكم هاتان الهجرتان جميعا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النساء ثماني عشر امرأة .

ولم يرق لقريش ان يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة ، مزودا بالهدايا

الى النجاشى ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين الى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » (١) .

ولم يفلح الوفد وعاد الى مكة بخفى حنين .

ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، واقدمت على عمل يتنافى تنافيا تاما مع الانسانية ، فقد كتبوا كتابا تعاهدوا فيه على الا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الكاتب للصحيفة هو ، منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان من تقدير الله تعالى أن شلت يده .

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد حصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب .

وكان ذلك فى أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين، لا يخرجون الا من موسم ، الى موسم حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرا ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعا ومسبغة فلا ترق قلوبهم ولا يتأثرون ، واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الأمور ، من الشدة والنسوة ، تجرى تحت سمع الرسول وبصره ، وكانت قريش ترسل له صلوات الله عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع الوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون الى غايتهم سبيلا .

وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة قط ،

---

(١) آل عمران : ٥٤

كان يدعو ليلاً ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته ، يروى الامام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهليا أسلم يقول :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصر عينى بسوق ذى المجاز يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » ، ويدخل فجاجها والناس منقصفون (١) عليه ، فما رأيت أحدا يقول شيئا ، وهو لا يسكت يقول :

« يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

اقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته مستخفيا ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس الى الاسلام ، عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام ، يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة ، وذى المجاز يدعوهم الى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى انه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، واذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة » .

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعوة الى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والايذاء حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الاسراء والمعراج وارتد من ارتد وثبت من ثبت وكان حادث الاسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على ايمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ،

(١) يجتمعون ويزدحمون .

تميد الجبال ولا تميد ، وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الاسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الاســـلام فى هــذه الفترة ـ فترة السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة ـ مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على ايمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى وان كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فانها مع ذلك : كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمـــل راية الاسلام ونشر دعوته :

واذا كانت المعسكرات قد تحددت فى مكة ، كانت الفترة من الاسراء الى هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب فان الاسلام فى هذه الفترة . لم يكن قد وقف راكدا ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول فى معسكره المكى كل عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها ـ فى الطرف المقابل ـ الا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وانما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة اليها من جديد فى ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الاسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد فى الطبقات :

« أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ما أقام ، يدعو القبائل الى الله ، ويعرض نفســـه عليهم كل سنة بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى

ويشتم ، حتى أراد الله اظهار دينه ونصر نبيه وانجاز ما وعد فساقه الى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر، فدعاهم اليه ، وعرض عليهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به فى العام القادم .

ولما عادوا الى المدينة ، بشروا بالاسلام فى قومهم فأسلم من أسلم وكثر فى المدينة الحديث عن الاسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا الرسول — كما تحدثوا بذلك عن انفسهم — : « على الا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه فى معروف » .

قال : « فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك شيئا كان أمره الى الله : ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه » .

ان هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، انها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر الى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف . انه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وانما قيد ذلك بقوله : « فى معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ، فستقر — لا مناص — بأنها وثيقة الهية .

وعاد المسلمون الى المدينة بأخلاق أخرى ، ووجوه عليها نور الاسلام وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة، واخذوا يدعون الى الله مبشرين ومنذرين .

ثم عادوا فى العام التالى وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان والتقوا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة، فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث الصدقة .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وانا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج انفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن ، ثم دعاهم الى الله ورغبهم فى الاسلام وذكر الذى اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالايمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله : بايعنا فنحن أهل الحلقة (١) ورثناها كابر عن كابر .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخفوا حرسكم(٢) ، فان علينا عيونا

(١) أصل السلاح

(٢) كلامكم وصوتكم

وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم فتفرقوا الى محالكم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله .

فكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقال ـ : البراء بن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم « ان موسى أخذ من بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره، فانما يختار لى جبريل » .

فلما تخيرهم قال للنقباء : انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوارين لعيسى مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

قالوا : نعم ...

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انفضوا الى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة يا رسول الله : والذى بعثك بالحق لئن أحببت لتميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا لم نؤمر بذلك فانفضوا الى رحالكم .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما ، أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما

ضاقوا بالأمر ذرعا ، شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج اليها .

وأخذ المسلمون يهاجرون سرا ، بادية عليهم آثار تربية الرسول صلى الله عليه وسلم من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا فى جميع أحوالهم ، من جنود الله ، مهاجرين اليه للعمل على أعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فى نظر أصحابه ركونا الى الدعة والهدوء ، أو ميلا الى الراحة والسكون .

وانما كانت ، محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله من جبهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون الى الله ورسوله ، يهاجرون سرا ، جماعات أو فرادى ، حتى لم يبق بمكة الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وعندئذ آن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر .

ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشارف مكة ، ينظر اليها على أمل واثق من أنه سيعود اليها مبشرا بدين الله عاملا أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله انك لأحب البلاد الى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق الى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ، ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على الا يفلت المهاجران الى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول الله صلى الله عليه وسلم وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول ربى الله .

ولقد كانوا أحكموا التـــــدبير لقتله قبل ان يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل ـ عليه لعنة الله ـ وعرضها على الوضع التالى :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما ، نهدا ، جلدا ، ثم نعطيه سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف الوقوف فى وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية فنعطيهم اياها .

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (١) .

دخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو وابو بكر الغار مختفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزينا ، خوفا على الرسول صلوات الله وسلامه عليه فجاء النداء الالهى على لســان الرسول صلوات الله وســلامه عليــه يملؤه ثقــة وتفاؤلا :

« لا تحزن ان الله معنا » (١) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خنق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصـــاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : لو نظر أحدهم الى موضع قدميه لأبصرنا ، ويبتسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويقول :

---

(١) آل عمران : ٥٤ (١) التوبة : ٤

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ورفيقه وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليالى خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججا بالسلاح على فرس تسابق الريح ، ليأسرهم حتى يفوز بالجائزة التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول صلى الله عليه وسلم قتيلا أو أسيرا .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسخت قوائم فرسه فقال يا محمد : ادع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك وارد من ورائى ففعل فأطلق ورجع فوجد الناس يتلمسون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا وقد عرفتم بصرى بالأثر فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل الى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة :

١ ـ بناء المسجد : المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقا لمبدأ من الدين الاسلامى ، يتمثل فى قوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » (١) .

ويح قوم جفـــوا نبيا بأرض
ألفتــــه ضبابهــا والظبـــاء

وســـــــلوه وحن جذع اليه
وقلوه ووده الغــــــــرباء

اخرجوه منهـــــا وآواه غار
وحمتــــه حمــــامة ورقاء

وكفته بنســـــجها عنكبوت
ما كفتــــه الحمامة الحصداء

واختفى منهم على قــرب مرآ
ه ومن شدة الظهور الخفــــاء

ونحا المصطفى المدينة واشــتا
قت اليه من مكة الأنحـــــاء

(١) الحجرات : ١٠

مستخفيا فى جنح من الليل مفارقا البلدة التى ولد بها . والتى بها عشيرته وقومه الى بلدة يجد فيها حرية الدعوة الى الله .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى ، يصوره بأنه انتصار فى الوقت الذى كان فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئا فى الغار هو والصديق رضوان الله عليهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصارا مبينا : لأنها فرار الى الله ، والفرار الى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل :

« والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وأن الله لهو خير الرازقين »(١) .

ونحن مأمورون بالفرار الى الله ، أى بالهجرة اليه : « ففروا الى الله ، انى لكم منه نذير مبين (٢) ، وسيدنا ابراهيم عليه السلام قال : « انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » (٣) .

« وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين » (٤) .

والفرار الى الله ، والهجرة اليه ، والذهاب اليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : انهم يفرون الى الله ويهاجرون اليه يوميا : فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، واذا كانت هجرة بعض الناس انما هى الى دنيا يصيبها ، أو الى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده ، متمحضة لوجهه الكريم ، واذا ما كانت كذلك كان

---

(١) الحج : ٥٨ (٢) الذاريات : ٥٠
(٣) العنكبوت : ٢٦ (٤) الصافات : ٩٩

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية ، ورمز روحى جميل ، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حيـــاته ، بل فى نفس من انفاسه ، ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، والهجرة بهـــذا المعنى يتجاوز الواقع التاريخى ويتجاوز الزمان والمكان ، قد وردت فى الأحـاديث النبوية الشريفة ، وفى القرآن الـكريم .

يقول رسول الله صلوات الله عليه ، فيما رواه البخارى رضى الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحى نتبينه فى وضوح سافر فيما يلى :

يقول الله تعالى :

« الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (١) .

فى هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى ، اخراج الكفار للرسول صلوات الله وسلامه عليـــه من مكة ، وهجرته

(١) التوبة : ٤٠

الله معه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه للصديق :
« لا تحزن ان الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين ، لا شريك له ومن كان كذلك فان الله ينزل عليه السكينة ، أى طمأنينة النفس والرضا ويؤيده بجنود لا تراها الأعين : فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرين النفس ، هادىء البال سعيدا ولو ألقى فى النار لأنه سوف لا يشعر بها الا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة اليه تعالى .

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة اليه سبحانه انما هى النية الخالصة لوجه الكريم ، يقول صلوات الله وسلامه عليه:

« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فاذا ما توجهت النية بالأعمال الى الله تعالى كانت الأعمال هجرة اليه ، أما اذا لم تتوجه النية اليه ، فان الأعمال ــ ولو كانت خيرا فى ظاهرها ــ تكون هباء منثورا.

ومن هنا يتبين للمؤمنين حقا فساد الأفكار التى يروجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : ان العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير أو الخير لارضاء الضمير ان كان ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع، لأن العلم والفن اذا لم يتجه بهما أصحابهما الى الله ــ أسسا وغايات ــ انحرفت بهما الارادات والنيات الى الشر والافساد : فشقيت بهما الانسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فان معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى الا عن طريق الدين وقد حاولت العقول ـ مستقلة عن الدين ـ تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل الى نتائج .

والمؤمن اذن يهاجر الى الله بعلمه ، ويهاجر اليه بفنه ، ويهاجر اليه بعمله الخير .

على أن العبادات الاسلامية على تعددها واختلافها ، وانما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة الى الله تسمو بالمؤمن صعدا الى الصـــــلة بالله ، والى النعيم فى رضوانه ، والى السعادة فى رحابه ، فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة الى الوقوف بين يدى الله ومناجاته لحظة من الزمن ـ فهى هجرة الى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربا الى الله فهى ذهاب اليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس وقربى الى الله فهو ذهاب اليه .

أما مناسك الحج فانها صور من التجـــــرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم : « لبيك اللهم لبيك » .

وختاما : فان الصورة التامة الكاملة للهجرة الاسلامية الكبرى انما تتمثل فى أروع مظاهرها فى قوله تعالى :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جاد فى كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فالى هذه الهجرة الكبرى أيهـا الاخوة المؤمنون فان فيها الخير كله .

الجـــــهـــاد

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام ، هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

ان النبى العابد هو : النبى المكافح : وان نبى الرحمة : هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الاسلام ، الا فى سبيل الله ، فاذا ما خرج عن سبيل الله : لم يكن اسلاميا ، وكل ما فى سبيل الله : انما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردا وترتيبا وتفصيلا ، وانما نذكر منها عبرا ، حتى ننتهى الى فتح مكة :

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد صلى الله عليه وسلم : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات : لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت فى

مكانه فى غزوة احد التى غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه .

ووقف ثابتا فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم اذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟ .

ولقد كان واضحا فيه صلوات الله وسلامه عليه مايقوله سيدنا علي وهو من هو ــ بطولة وفروسية ــ : « كنا اذا حمي الوطيس أى الحرب : اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم أى احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا الى العدو » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه الى الله تعالى . يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه بالنصر : يحكم الأمر احكاما ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره فى جميع اموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيما محكما ثم اتجه الى الله يدعوه ، وكان دائما متفائلا ، كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون باذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد : شذوذا فى القاعدة ، وما كان ذلك الا لأنهم خالفوا ــ متأولين ــ أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة ، اذ انه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورا ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه ، أنه فى غزوة الأحزاب ، وقـــد تجمع الشرك من جميـــع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الاسلام فى المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا . وقد كان المسلمون : يعملون فى حفر الخنادق حماية لهم ، ومنعا من وصول العدو اليهم فى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه : القصة التالية ، حسبما رواه الامام احمد :

« أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول فشكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ثم هبط الى الصخرة . فأخذ المعول وقال : بسم الله ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله انى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال بسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله انى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ثم قال : بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله انى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل : الثقة والاطمئنان فى المسلمين وان كان قد دعا الى الســــــخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : ان محمدا يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط

فى كفاحه الطويل الدائب الذى أستمر الى نهاية حيـاته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، « انا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » (١) .

ان آيات الفتح هذه ـ نزلت فى أثناء عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد صلح الحديبية،نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة تشير الى فتح مكة وتبشر به ، ولقد أوحاها الله الى رسوله ليلا ، فلمـا اصبح صلوات الله وسـلامه عليه قال : حاجين معتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، ولقد نزلت على الليلة سورة : هى احب الى مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ قوله تعالى :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى وانما هى تشير ـ على الخصوص ـ الى الآفاق العليـا من الرضوان الالهى . انها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحـاضر والمستقبل ، والتى سمت بالرسول صلوات الله وسلامه عليه الى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

انها بشرى من الله بفتح مبين وغفران شامل واتمـام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ونصر عزيز : وهذه منح الهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وانمـا

(١) الفتح : ١ ، ٢ ، ٣

تفسر أيضا ، ومن باب أولى ، بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الالهية ـ اللهم لك الحمد والشكر ـ ولذلك فاننا حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وانما الذى يحتل ذلك انما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى ، الممثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى الى الانسانية : أى فى سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ومهما يكن من شىء ، فان قريشا ، نقضت عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ولا تشرك به شيئا ؟ .

« أن الشرك لظلم عظيم » .

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ؟ .

لقد دعا سيدنا ابراهيم ـ فى رحاب مكة ـ ربه مبتهلا ضارعا قائلا :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » (١) .

وها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله اليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟ .

---

(١) البقرة : ١٢٩

وهذا البيت العتيق ، الذى رفـــع قـواعده ابراهيم واسماعيل قائلين :

« ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » (١) .

هذا البيت الذى عهد الله لابراهيم واســماعيل ، أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

هذا البيت : قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة ــ فى وقاحة سافرة ــ الشرك بالله .

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها الى الله .

وصمم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزم لا يلين ، على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين :ــ أعنى مكة ــ وأن يطهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود ، وعبثا حاول أبو سفيان الذى أرسلته قريش سفيرا بينها وبين الرسول ــ أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان ــ رغم دهائه ولباقته ــ عونا من احـــد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يجلس عليه أبوها ــ زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة ــ فلما سألها مستفسرا أرغبت به عن الفراش أم رغبت بالفراش عنه ، قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مغضبا قائلا : « والله لقد أصابك من بعدى شر » ، وخطأ أبو سفيان فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

(١) البقرة : ١٢٧

وهيأ رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ القوى وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى اذا كان بالكديد ، واجتمع الناس اليه : أخذ اناء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس من قبل الرخصة ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلها ، ومن صام فان رسول الله صلى الله عليه وسلم صام » (١) .

حتى اذا بلغ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ « مر الظهران » وهو مكان ــ بالقرب من مكة ــ أمر الجيش بالافطار لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والايمان .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال بعقليته الجاهلية للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال العباس ، بعقليته الاسلامية : ويحك انه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان : فنعم ، وتوجه رسول الله نحو مكة محذرا من اراقة الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » عزله النبى صلى الله عليه وسلم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دون مشقة : وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى ابراهيم عليه السلام ، مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ،

(١) هذه قاعدة وضعها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقاس عليها حالة الجيش الاسلامى فى حروبه أيام رمضان

فقال : قاتلهم الله ،جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ماشأن ابراهيم والأزلام ؟ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (١) .

وامر بطمس الصور كلهـــا ، واتجه الى الأصنام ، فحطمها مرددا قوله تعالى :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان البـــاطل كان زهوقا » (٢) .

واذا كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قد حطم الاصنام المادية ، فانه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل لا يقصد الانسان به وجه الله ، فانما هو من أعمـــال الشرك وفى هذا اليوم تملكت اريحية العفو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فانه ، حينمــــا اجتمعت قريش اليه ، نظـر اليهم وقال : « يا معشر قريش ، ما ترون انى فاعل بكم ؟ » ، فقالوا : خيرا أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لاخوته :

« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » (٣) .

فكان هذا اليوم حقا يوم المرحمة .

وبالله التوفيق .

---

(١) آل عمران : ٦٧ (٢) الاسراء : ٨٦
(٣) يوسف : ٩٢

النبي العابد

ألف النسك والعبادة
والخلوة طفلا وهكذا النجباء
واذا حلت الهداية قلبا
نشطت في العبادة الأعضاء

ان أول آية نزلت من القرآن الكريم انما هى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » (١) ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ، ومفهومها وجوها — شعارا عاما وتوجيها شاملا ، فما كانت تعنى بروحها ، القراءة فحسب ، وانما كانت تعنى : أنه — منذ هذه اللحظة — يجب أن يكون أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركا .

ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافرا فيما بعد ، لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا اول المسلمين (٢) » .

على أن المسألة : اشمل من ذلك وأعم ، اذا كان يتأتى

(١) العلق : ١ (٢) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣

الشمول والعموم بعد هذا .

ان الله سبحانه قد أخبر في قرآنه الكريم : أنه ما خلق الجن والانس الا للعبادة ، يقول سبحانه :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١) .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التي يجب ان يعمل الانسان على تحقيقها اذن انما هي : العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة .

« واقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقل رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطان نصيرا » (٢) .

« واسجد واقترب » (٣) .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٤) .

« واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » (٥) .

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة ، انه سبحانه الغني المطلق ، والفاتح المطلق ، والمعطي المطلق ، انه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغني ، انه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة الا لأجل تكميل الانسان فمن فضل الله على عباده ، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن

(١) الذاريات : ٥٦
(٢) الاسراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠
(٣) العلق : ١٩
(٤) الحجر : ٩٩
(٥) الطور : ٤٨ ، ٤٩

طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، انها راجعة اليه في الدنيا ، وراجعة اليه في الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـــاة طيبة ، ولنجـــزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١) .

ومن عناية الله بالأمة الاسلامية ، وبرسوله الكريم : ان أول كلمات الوحي من الوحي : كانت توجيهـــا للرسول وللمسلمين ، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلا أو شربا مثلا .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهـــذا التوجيه السامي الذي توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحي .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليـــه حينما فاجأه الوحي ، فعاد يرجف فؤاده الى منزله الطاهر وقال : « زملوني : زملوني » ، نزل عليه قوله تعالى :

« يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » (٢) .

لم يقل له سبحانه . يا أيها المزمل لا تخشى باسا ، أو يا أيها المزمل لا ترع .

فان ذلك من عند الله وانما كان الرد على رجفة الفؤاد : أمرا بالعبادة .

وكذلك الشأن في كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل :

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) المزمل : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى » (١) .

وهنا علق سبحانه الرضا ، وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ، ويشير الله الى ذلك أيضا فيقول :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » (٢) .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة ، للتوجيه الالهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ، اذ أنه كان يعملها بسم الله ، لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها ، بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ، بل جعل أنفاسه عبادة الله سبحانه فكان ذلك توجها به الى الله فكان عبادة له . وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أول المسلمين .

أو لهم منذ أن خلق الله العالم الى أن يطوى الله الأرض وما عليها باعتبار ان الدين عند الله ــ منذ الأزل الى الأبد انما هو : الاسلام .

لقد صير الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر .

واذا ما استحالت الى عبادة ، فقد استحالت الى قوة ، ارأيت حينما نجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ،

---

(١) طه : ١٣   (٢) ق : ٣٩ ، ٤٠

ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش عبادة ، ومن ، ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ، وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ ، وهل يسعدون أم يشقون ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكرا لها ، فقال سبحانه :

« ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ، ونصفه وثلثه » (١) .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التى تصور هذا الجانب من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه،ومن وراء أيضا هذا الجانب من حياته صلوات الله وسلامه عليه أهداف :

١ ـ تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ ـ رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك انما هى « صل » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب النفسى أيا كان .

ومتى وجدت النفس المطمئنة ـ والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها الا بالعبادة ـ فان الكثير من الأمراض الجسيمة نفسها يزول باقرار أطباء الأجسام انفسهم ، ثم انه ـ باقرار أطباء الأجسام أيضا ـ لا يكون الانسان

---

(١) المزمل : ٢٠

المطمئن عرضـــــة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسيمة .

٣ ـ وهذه الأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه التى نرجوها : ستكون أيضـــا سببا فى تفريج الضيق المادى .

« ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (١) .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيــاة طيبة ولنجـــزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٢) .

وهذه الأحاديث التى نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال ، فانا قد تحرينا تحريا كاملا ألا نذكر فيما يلى ـ الى آخر الكتاب ـ حديثا ضعيفا .

---

(١) الاعراف : ٩٦ (٢) النحل : ٩٧

الصــــــلاة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ .

قال : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » ؟! .

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ! .

قال : هممت أن أجلس « وادعه » .

ولعل لابن مسعود رضى الله عنه عذره ، فقــــد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يقرأ فى الركعة الأولى مثلا : سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ، حيثما كان يفعله منفردا فى جوف الليل . أما اذا كان مع الناس فانه يخفف .

وقد ورد فى السنة الصحيحة : اطالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل،

ويسبب هذه الاطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز احدى عشرة ركعة .

« عن عائشة رضى الله عنها : كان النبى صلى الله عليه وسلم : يصلى من الليل احدى عشرة ركعة ، فاذا طلع الفجر صـــلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » ! .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : يستغرق فى صلاته الليلة ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن ابيه قال :

« اتيت النبى صلى الله عليـــه وسلم : وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعنى يبكى » .

وللصلاة اهمية كبرى يوضحها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

« ان بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضأ لكل صـلاة ، عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والاحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة : كان عند الاقامة يقول :

« اقامها الله وأدامها » .

« وكان صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة طأطأ راسه » .

قالت عائشة رضى الله عنها : « لم يكن صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل اشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر » .

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : اكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال : نعم كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى منه الصبح حتى تطلع الشمس فاذا طلعت قام » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يدخل فى الصلاة ، فيريد اطالتها فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بسورة « الجمعة » فى الركعة الأولى و بـ « اذا جاءوك المنافقون » فى الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ فى المغرب بـ « الطور » .

وكان صلوات الله وسلامه علبه يقرأ فى المغرب بـ « المرسلات عرفا » وانها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق والقرآن المجيد » الا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس » .

كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى صبح الجمعة : « ألم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الانسان حين من الدهر » رواه الشيخان .

من حديث أبى هريرة ، وانما كان يقرؤهما كاملتين ، وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان صلى الله عليه وسلم يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بـ « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية » .

وكان « يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » .

« وكان صلوت الله وسلامه عليه ، يقول بين التشهد والتسليم ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت » .

« وفي السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

« وعن حذيفة ، كان يقول صلى الله عليه وسلم في ركوعه : سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده ، سبحان ربي الأعلى » .

« وعن عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن » .

رواه مسلم ، ومعنى يتأول القرآن : يعمل بما أمر به كما في قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » (١) فكان صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفي ما أمر به في الآية .

---

(١) النصر : ٣

الصيام

أما اذا جئنا الى رمضان ، والى الصيام ، على وجه العموم فالأحاديث التالية : توضح بعض الأمر : كما أن احاديث الصلاة التى رويناها ، انما بينت اشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .

فرض رمضان فى السنة الثالثة من الهجرة فتوفى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صام تسعة رمضانات .

عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » .

وعنها قالت : « كان صلى الله عليه وسلم يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير ما لا يجتهد فى غيره » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى » .

« كان النبى صلى الله عليه وسلم يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذى قبض فيه أعتكفت عشرين يوما » .

« اذا دخل العشر الأخير طوى فراشه واعتزل النساء واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحورا » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلوات الله وسلامه عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول صلى الله عليه وسلم أن يواصلوا ، قالوا : انك تواصل ، قال : لست كهيئتكم انى أظل أطعم وأسقى » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطـــر الأيام البيض فى حضر ولا ســـــفر ، وهى ثلاث عشر ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يدعهن . صيام عاشوراء ، والعشر ـ أى تسع ذى الحجة ـ والأيام البيض من كل شهر : وركعتا الفجر » .

« كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس » .

« كان النبى صلوات الله وسلامه عليه ، يصوم ثلاثة ايام من غرة كل شهر » .

ومن العبادة الذكر

« لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان صلوات الله وسلامه عليه . يذكر الله على كل أحيانه » .

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثل الحى والميت » . وأفضل الذكر قراءة القرآن :

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« ان الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الخراب » .

« اقرءوا القرآن ، فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وبينما جبريل عليه السلام ، قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، ولم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط

الا اليوم فسلم وقال : ابشر بنورين أو تيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : « فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف الا أعطيته » .

ولأن لا اله الا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على انحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه :

« أفضل الذكر لا اله الا الله » .

عن أبى موسى رضى الله عنه قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» .

فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : « لا حول ولا قوة الا بالله » .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يقول بأعلى صوته : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

« ومن قال لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك

حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » .

« واذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، فاذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان . أدركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال أدركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور . شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله ، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

« ان أحب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » .

« لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، أحب الى مما طلعت عليه الشمس » .

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

الـدعــــــاء

وقال صلوات الله وسلامه عليه : الدعاء هو العبادة .

أما أحسن أوقات الدعاء فان الأحاديث التـالية تذكر بعضها :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء ، فقمن أن يستجاب لـكم » .

قيل لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر،ودبر الصلوات المكتوبة» .

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » .

« لا يزال يستجاب للعبد » ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل قيل : يا رسول الله ، ماالاستعجال؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أره يستجيب لى فيستحصر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة الا أتاه الله اياها » أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : اذن نكثر ، قال : الله أكثر » .

« كان صلى الله عليه وسلم ، يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك » .

ومن جوامع دعائه ما يلي :

« أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربي » ؟ .

قال : « قل اللهم اغفر لي وارحمني ، وعافني، وارزقني فان هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم اني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدعاء كثير لم تحفظ منه شيئا .

قلت : يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا ؟

فقال : ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟ . تقول : اللهم انا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة الا بك » اهـ .

« اللهم اني أعوذ بك ، من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء » .

« اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » .

عن شهر بن حوشب قال : « قلت لأم سلمة رضي الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان عندك ؟ .

قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » اهـ .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى اليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وتحتى نوراً ، وامامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : علمنى دعاء ادعو به فى صلاتى .

قال : « قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، انك أنت الغفور الرحيم » .

وكانت صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لى ، وارحمنى ،واهدنى،وعافنى،وارزقنى» .

« عن معاذ رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال : يا معاذ : والله ، انى لأحبك ، ثم أوصيك : يا معاذ ، لا تدعن فى دبر كل صلاة : أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك» .

وعند الافطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت،ورزقنى فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك افطرت ، فتقبل منى ، انك أنت السميع العليم » .

عند الكرب : « ياحى يا قيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب أيضا : « لا اله الا الله العظيم الحليم، لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما اذا كان الكرب شديدا فيحسن أن يكرر الانسان دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم اليك أشكو ضعف قـــوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى الى من تكلنى ، الى بغيض يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى أن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهـــك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

واذا خاف قـــوما قال : « اللهم انا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« الا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل دينا أداه الله عنك ، قل : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك » .

وعند الخروج من البيت :

« عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال اذا خرج من بيته : بسم الله ،

توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال : له هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

عند النوم واليقظة :

« اذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا . واذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » .

عند الأكل : « الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » .

عند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

واذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والايمان ، والسلام والاسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا اله الا أنت . أستغفرك وأتوب اليك » .

وعندما يودع شخصا :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا فيقول : استودع الله دينك ، وأمانتك وخواتيم عملك » .

ومن العبادة الصلاة على النبى

"صلى الله عليه وسلم"

والصلاة عليه أمر بها الله سبحانه فى كتابه فقال :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (١) ، والصلاة على النبى تكون بأية صيغة ، وكل الصيغ فى الصلاة عليه مباركة ، والمأثور منها هى الصيغة التى فى التحيات .

والذكر بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ثماره شتى ، وفوائده عدة ، فضلا عن العبادة نفسها : ونذكر من هذه الصيغ صيغتين :

الأولى منهما للخروج من الضيق ، ولتيسير المعسر ، وللخروج من الشدة وللفرج على جميع أنحائه للوصول الى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله المغفور له الشيخ احمد أبو هاشم وهى ما يلى :

« اللهم صلى على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرءوف الرحيم الذى أخبر عن ربه الكريم أن الله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج قريب ، وسلم » .

أما الثانية : فاننا نسميها الصيغة التجريدية ، لأنها لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهى قياس موفق

---

(١) الاحزاب :٥٦

على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر ب « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته » ، والصيغة هي ما يلى :

« اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك » .

وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضى صاحب الضريح المبارك فى شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو فى رؤية منامية ، وهى صيغة مباركة، وانا لننصح بتكرارها كلما أتيح للانسان ذلك .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله وسلامه عليه فى سبب بعثته .

« انما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« انما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

« بعثت بالحنيفية السمحة » ا هـ .

أما هو صلوات الله وسلامه عليه فانه رحمة مهداة الى العالم .

« أيها الناس انما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أنى رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من تبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبى جهل وأتباعه المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفى ميزان التقوى على أنه :

« ما من شىء أثقل من ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وأن الله يبغض الفاحش البذىء » .

والأخلاق لا وزن لها بدون الاخلاص ، ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته

لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحهـــــا فهجرته الى ما هاجر اليه » .

« ان الله لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » :

« دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة، والكذب ريبة (١) » . ومعناه : اترك ما تشك فى حله واعدل الى ما لا تشك فيه » .

ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمة فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمـــه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ .

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال ، عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال ، فما عملت فيها ؟ .

قال : ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيهـــا الا انفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال ،

---

(١) قوله : يريبـك : هو بفتح الياء وضمها .

جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

ومن المنكر ، السبع الموبقات .

« اجتنبوا السبع الموبقات » .

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ .

قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات (١) » . الموبقات المهلكات .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله » .

---

(١) متفق عليه .

(عن أبى بكر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يوم النحر بمنى ، فى حجة الوداع : أن أموالكم ، وأعراضكم ودماءكم ، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا، الا هل بلغت ؟) .

(سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر) .

(اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟) .

قال : « انه كان حريصا على قتل صاحبه » .

(المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم ، حرام عرضه ، وماله، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر ! أن يحقر أخاه المسلم) ! .

(المسلم . أخو المسلم ! لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته ! ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه الله » .

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

« ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا الى الجنة » .

« وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه الا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

« ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » ا هـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاة : اذا أتيت معسرا فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه » .

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال أريد أخا لى فى هذهالقرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال : فانى رسول الله اليك : بأن الله قد أحبك كما احببته فيه » .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة :

يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ؟ قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟!

قال : اما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟! .

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال يا رب :

كيف اطعمك وانت رب العالمين ؟ قال : اما علمت انه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ اما علمت أنك لو اطعمته لوجدت ذلك عندى ؟! .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال يارب : كيف أسقيك وانت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه ، فى العلم :

« من سلك طريقا يبتغى فيه علما ، سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ! وان العالم ليستغفر له من السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثوا العلم ، فمن أخذه اخذ بحظ وافر » .

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة الا مع ذى محرم » .

فقال له رجل : يا رسول الله ، ان امرأتى خرجت حاجة ، وانى كنت فى غزوة كذا وكذا وقال : انطلق فحج مع امرأتك .

« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محرم » .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فى الجهاد :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه الا جهاد فى سبيلى ، وايمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر وغنيمة، والذى نفس محمد بيده ، ما من كلم (١) يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم وريحه ريح مسك ، والذى نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

---

(١) والكلم : الجرح .

من توجيهات القرآن

– ١ –

(أ) يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« لقد من الله على المؤمنين ، اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين (١) » .

وآيات القرآن كثيرة فى هذا المعنى ، تؤكد كلها أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت نعمة عظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى ، انما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك ان هذا الرسول صلى الله عليه وسلم انما هو لسان صدق فى تبليغ آيات الله فهو يتلوها على المؤمنين، انه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ووعاها وتشربتها روحه فانطبع بها وعاشها ، ومن أجل ذلك كان هـذا الرسول صلى الله عليه وسلم مصدر تزكية لهم ، أنه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح – من أجل ذلك – مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسى للمؤمنين .

لقـــد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وأنه يتلوها ويحياها فهو يبشر بها بقوله : أو بتلاوتها ويبشر

(١) آل عمران : ١٦٤

بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب ، انه لا يتلو فحسب وانما يعلم أيضا ، انه يشرح ويفسر ويطبق ويقوم تطبيق الآخرين اذا انحرفوا ، وأنه يعلم القرآن . بعد أن انطبع به وبعد أن أصبح وهو قرآنا ، لقد أصبح فكرة قرآنا ، وأصبحت عواطفه قرآنا ، وأصبحت ارادته قرآنا .

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير واخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » .

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها انما هى كلمة بدهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادىء يعتقد الناس أنها مجرد مبادىء نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج لو لم تطبق فعلا ، ولو لم تتحقق واقعيا ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لابد صورة حية تتمثل فيها هذه المبادىء : تتمثل فيها ذاتيا ، وتتمثل فيها من جهة تطبيقها على الغير وقيادة الغير الى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك : لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادىء .

(ب) بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق ، كما يحب الله سبحانه ، لبنى الانسان قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققها واقعيا ، هو فى نفسه على أكمل ما يكون التحقيق تطبيقا

في مجتمعه على الصور التي استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع لأن لكل نظام من النظم حدا أدنى لا يتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحدا أسمى يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الاسلامية في حدها الأسمى في الرسول صلى الله عليه وسلم وكان بذلك ـ بنص القرآن ـ أول المسلمين . وترسم الآيات القرآنية :

كيف ، ولم ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

« قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »(1).

لقد كانت أعماله وحياته كلها بل ومماته ، لقد كان كيانه كله حركة وسكونا حياة وموتا لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها الأدنى في آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الاسلامي بالفعل :

ولقد انتفت بذلك فكرة هؤلاء الذين راوا في الماضي أو يرون في الحاضر أن الاسلام مبادىء لا تطبق ، مبادىء نظرية ، مبادىء خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الاسلام بالفعل ، فوجد مجتمعا أسلم نفسه لله ، وأن مجتمعا يسلم نفسه لله لا يتأتى أن تتمخض الانسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذي وجد انما كان ثمرة من ثمار

---

(1) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣

جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه فى أن يخرج بالفعل الصورة التى أوحاها الله اليه ، لقد كان أثرا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله ولتزكية الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله بمثله القرآنى ، ولتعليمه صلوات الله وسلامه عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وامتـــلأت به وصفت بصفاته ، وتزكت به واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة أثرا من آثار الهداية التـامة ونتيجة للنور يغمر القلب ويتلألأ فى الفـــــؤاد فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الكتاب ويعلم الحكمة، وما الحكمة الا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ينير بها قلوبا ويرشد بها عقولا ويقرب بها عباد الله الى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فان الحكمة أيضا من عند الله ، يقول الله تعالى :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١) » .

وما كان رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى بآيات يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التى أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا يشبه ما قال والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله منة على

(١) النساء : ١١٣

خلقه بتعليمهم الـكتاب والحكمة فلم يجز ــ والله أعلم ــ أن يقال : الحكمة ها هنا الا سنة رسول الله .

وذلك انها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على النـــاس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال : لقول فرض الا لكتاب الله ثم سنة رسوله ، لمـا وصفنا من أن الله جعل الايمان برسوله مقرونا بالايمان به.

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصة وعامة ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها اياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

(جـ) هذه الصورة التى ترسمها الآية الـكريمة التى صدرنا بها هذا المقال ــ هى الصورة التى تمناها سيدنا ابراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد من البيت واسماعيل فقال عليه السلام :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ،انكأنتالعزيزالحكيم» .

ولقد صادفت دعوة سيدنا ابراهيم ما قدره الله ازلا ، لقد وافقت التقدير الالهى الأزلى الذى أراد سبحانه به أن يكمل الدين ويتم النعمة على المؤمنين، وأن يكون خاتم الأديان ، هو الدين ، الأزلى الخالد الذى لا دين سواه ، والذى يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الاسلام .

« اليوم أكملت لـكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) .

« ان الدين عند الله الاسلام » (٢) .

ولا يتأتى فى عرف المنطق وفى منطق الحق وفى بداهة

(١) المائدة : ٣ (٢) جزء من آية ١٩ آل عمران .

المعقول أن يكون الدين الخالد شيئا آخر غير اسلام الوجه لله .

وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وما دام الدين عند الله هو الاسلام ، فالرسول اذن أو المتدينين على الاطلاق : انه وصل الى الدرجة التى سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره، وسبق بها ما سيأتى بعده ، انه أول المسلمين فى الماضى البعيد والماضى الذى يبتدىء منذ بداية الانسانية .

وما من شك فى أن آدم عليه السلام كان مسلما ولكنه لم يكن أول المسلمين ، ولقد كان نوح مسلما ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا . كان الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم ، من المسلمين . ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين ، لأن الدين الذى جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه ــ وان كان اسلاما ــ فان الصورة الكاملة التامة للاسلام انما هى : القرآن .

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » (١) .

ويقول سبحانه : « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم » (٢) .

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى المستقبل ، الى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، والى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) الزمر : ٥٥

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الاسلامية وعن طابع الرسول صلى الله عليه وسلم : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

لقد كان ارسال الرسول صلى الله عليـــه وســلم ، رحمة ، اذا نظرنا الى الرسالة الاسلامية ، وكان ارساله رحمة اذا نظرنا الى شخصيته . يقول ، صلوات الله وسلامه عليه : « انما أنا رحمة مهداة » .

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه الىالرحمن رسالة ، وينتسب الى الرحمن صفات ، وكان ينتسب الى الرحيم رسالة ، وينتسب الى الرحيم صفات ، انه رسالة وصفات ، يسير فى حياته ، باسم الله الرحمن الرحيم ، مبشرا « باسم الله الرحمن الرحيم » ، انه نبى الرحمة ، وانها رسالة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى قد ربى رسوله على عينه واصطنعه لنفسه فنشأه علىالرحمة فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده .

واننا اذا أردنا تعبيرا مجملا جامعا لمعانى الرحمة التى اتصف بها نبى الرحمة ، فاننا نجده فى وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول صلى الله عليه وسلم، حينما فاجأه الوحى وحدثها به وقال لها : « لقـــــد خشيت على نفسى » .

فقالت رضى الله عنها ، فورا : « كلا والله ما يخزيك

---

(١) سورة الانبياء : ١٨٧

الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الـكل وتكسب المعدم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

ان هذا الوصف الصادق للرسول صلى الله عليه وسلم انما يعبر فى كل جملة من جمله عن الرحمة (وهو وصف اتسم به الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته) والآية القرآنية .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » لا تخصيص فيها ، لا من ناحية نوع الرحمة ولا من ناحية موضوع الرحمة . ويشرح هذه الآية فى شمولها وعمومها ، يشرحها فى دقة وفى عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى . لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عن الرحمة ويدعو اليها ويعرف بمنزلتها من الدين . فقال بعض الصحابة رضـــــوان الله عليهم . « انا نرحم ازواجنا وأولادنا وأهلينا » .

فلم يرض هذا القول رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عاما شاملا ، انه تقييد للمطلق ، ولذلك رد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة العامة » . وما من شك فى أن من الرحمة : رحمـــــة الأزواج والأولاد والأهل ، وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم انما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الانسانى كله حتى تصبح وكأنها من فطرته ، وطبيعته وجبلته فيكون الانســــان وكأنه قبس من الرحمة الالهية ينشرها اذا سار وينشرها اذا جلس ، وينشرها أينما كان ، وينشرها حيثما حل .

واذا كان كذلك فانه يكون قد حقق الطابع العــــام

للرسالة الاسلامية : رحمة للعالمين .

ولقد حقق الرسول صلى الله عليـــه وسلم ، هــذا الطابع بقوله ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة وهى طابع للرسالة الاســـلامية هى طابع تصرفاته وانظر الى الحادثة التالية ، الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى :

« ما كــان لنبى أن يــكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وهى : لما هـــــزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استشار النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر : يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وانى ارى ان تأخــذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى ان يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : والله ما ارى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان « قريب لعمر » فأضرب عنقه وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقــــه وتمكن حمزة من فلان اخيه « يعنى العباس » فيضرب عنقه حتى يعلم الله انه ليس فى قلوبنا هوادة « أى ميل » للمشركين .

أما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان معروفا يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا الطابع الرسالة الاسلامية انه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه ، بل زاده عليه حينما خير رسوله فيما بعد بأنه اذا وضعت الحرب

أوزارها له أن يمن وله أن يأخذ الفداء .
« فاما منا بعد واما فداء » .
وقبل بدر اخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء فقد نادى فى سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام.
فلما كانت بدر سار رسول الله صلى الله عليه وسلم على سنته ، وتصرف مستلهما طابع الرسالة التى ارسله الله بها ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر الى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ فى تقدير الفدية وزنا وكيلا وقيمة ومقدارا وكما وكيفا ، وأخذ فى تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر ، ان بعض الصحابة نظر الى المسألة نظرة مادية فنزل قول الله سبحانه وتعالى ، مصححا الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الامور فى وضعها الصحيح ولم يزنوها بميزان التوجيه الالهى .
يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه « المواهب اللدنية » فى ذلك . « فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال ما كان لنبى غيرك » اهـ .
ويقول القاضى بكر بن العلاء : « أخبر الله تعالى نبيه فى هـذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من احلال الغنائم والفداء » اهـ .
والتوجيه الالهى فى خاتمة رسالات السماء أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها وما كان لنبى من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض . فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبى الرحمة أباح الله له التصرف بحسب الرحمة وهو الفداء ، ثم زاده تكريما على تكريم

حيث زاده رحمة الله على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء .

وان كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادى ، ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياسا انه ليس بمقياس ان المادة ليست فى موازين الله مقياسا ، فان الله يريد الآخرة ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (١) وانه لمن أفضال الله على رسوله انه سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وانما قال : « أسوة حسنة » وقال سبحانه : « أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ثم أن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، « وما كان أيسر ذلك ولم ينقض الله سبحانه ما ابرمه رسوله المبرأ عن أن يسير الا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدى الا الى الصراط المستقيم صراط الله .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكافح طيلة حياته فى غير فتور ولا هوادة لهداية الانسانية واسعادها . لقد كان صلى الله عليه وسلم يشق على نفسه فى سبيل ذلك ويحملها من الأمور ما لا تطيق حتى لقد قال الله له .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » (٢) .

وقال سبحانه : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٣) .

---

(١) الاحزاب : ٢١ (٢) فاطر : ٨ (٣) الكهف : ٦

ولقد رسم الرسول صلوات الله عليه موقفه من الناس ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى فى نــار يتهافتون على الاحتراق فيها ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمـــة التى كان يستعملها الرسول : صلى الله عليه وســلم فى سلوكه مع الناس وهى وان كانت خاصة برجل معين فانها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاء أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطــاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له مستفسرا متوددا : احسنت اليك! فقال الأعرابى لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا اليه ، فأشار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الأعرابى وزاده ثم قال : « أحسنت اليك » .

فقال الأعرابى : نعم جزاك الله من اهل وعشيرة خيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك . فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

وتحدث الأعرابى اليهم وطابت انفس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الأعرابى ، فقال صــلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع :

وان مثلى ومثل هذا الأعرابى : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفــورا فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فانى ارفق بها وأعلم ، فتوجه اليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها .

وانى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار . أ هـ . لقد كانت نفس رسول الله صلى الله وسلم رحيمة حتى مع الأعداء .

لقد قيل له يوم أحد وهو فى اشد المواقف حرجا لو لعنتهم يا رسول الله ، فقال ، صلوات الله وسلامه عليه : « انما بعثت رحمة ولم ابعث لعانا » .

وكان اذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه الى الدعاء له بالهداية والصلاح ، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم . سئل مرة : أى الناس أحب اليك ! فقال : انفع الناس للناس : وسئل . اى الأعمال أفضل ! فقال : « ادخال السرور على المؤمن » وقال : « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » .

وكانت رحمته . صلوات الله وســـــلامه عليه عامة شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال ـ ـ يحث على الشفقة بالحيــــوان ـ « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئرا فشرب منها . ثم خرج منها فاذا هو بكلب يلهث الثرى « يأكل الثرى من شدة العطش » فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يا رسول الله . وان لنا فى البهائم أجرا ! قال : « نعم ، لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

لقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحمة للعالمين .

فهرس

العدد القادم

فن الحيـــاة

تأليف : أندريه موروا

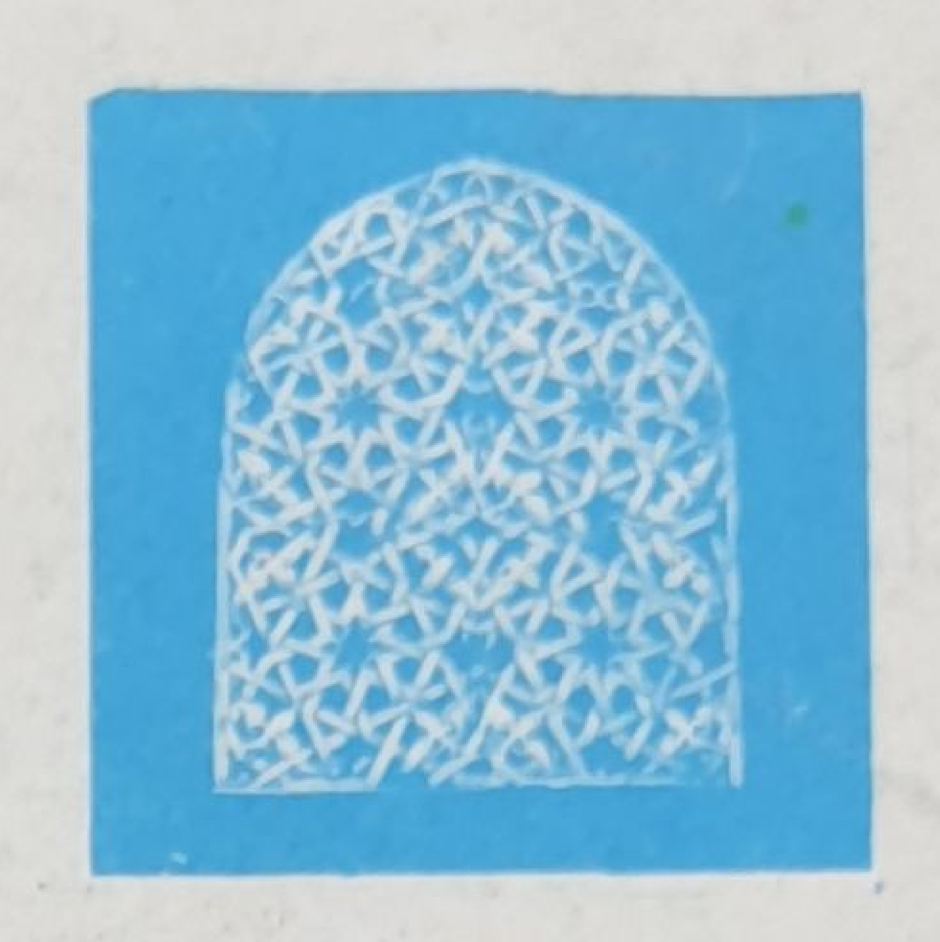
ترجمة : أحمد فتحي

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هـذا الكتاب

للشيخ الجليل الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود عليه رحمة الله منهاج فريد خاص به في تناول موضوعات الاسلام فهو يصدر عن علم غزير واطلاع واسع ، ولكن عماده الاكبر على ايمانه العميق واحساسه الصوفى بالاسلام وفضائله ٠

وهو فى هذا الكتاب يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليــه وسلم حديثا يجمع بين كلام أصحاب الحديث من الفقهاء ، وأصحاب القصص من المؤرخين وأصحاب الوجد من الصوفية ، فقد كان رحمه الله صوفى الطبع والمزاج يحس الدين كما يعرفه ٠

هنا يرى الامام الأكبر صورا من حيـاة نبى الاسلام الأعظم ويروى أحاديث كريمة يفسرها تفسيرا مبتكرا ويورد أيات قرآنية يستعين بهـا فى رسم الصورة التى أراد رسمها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وهو يرسل ذلك كله ارسالا سهلا لا تكلف فيه ، وقــد كانت تلك خصائصه التى عرف بها ، فقد وعى قلبه العلم الاسلامى كله ، ولكنـه اذا تحدث لجأ الى البساطة التامة دون أن يحـاول أن يلقى فى روع القارىء الاحساس بعلمه الغزير واطلاعه الواسع ، ومن هنـا كانت كتاباته رحمة الله عليه من أسرع الأحاديث مدخـلا الى النفوس ، والقلوب ، ومن هذه الناحية كان من أكبر دعاة الاسلام ، والذين أسلموا على يديه ألوف ٠

كتاب بديع بقلم علامة مسلم عظيم ، والموضــوع نفسه هو أحب الموضوعات الى قلوب المسلمين موضوع الرسول صلوات الله عليه ٠

